مؤسسة مهجة القدس
MUHJAT ALQUDS FOUNDATION

من فكر السجون وأدبه

الإصـــدار السادس عشر

رواية
المعمعة

عمار محمود عابد
سجن نفحة

روايـــــــة

المعمعة

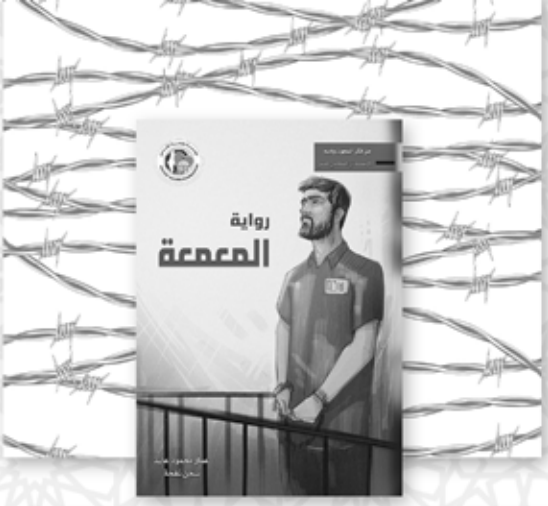

الكتاب: سلسلة فكر وأدب السجون (16)

رواية: المعمعة

المؤلف: الأسير المجاهد/ عمار محمود عابد

الناشر: مؤسسة مهجة القدس

غزة - فلسطين

الطبعة: الأولى

سنة النشر: محرم 1443هـ
أغسطس - آب 2021م

رقم الإيداع: 1571 / 2021

الآراء الواردة في الكتاب لا تُعبِّر بالضرورة
عن وجهة نظر مؤسسة مهجة القدس

حقوق الطبع والنشر محفوظة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾
[يوسف: 39]

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

صدق الله العظيم [البقرة: 45-46]

لكل نهاية بداية

كم يعيش هذا العالم في ضلالةٍ عمياء! وجهالةٍ جَهْلاء، فترى العَالِمِ كجاهلٍ، والحيّ كميتٍ؛ لأنَّ العقولَ أصبحت مسجونةً مأسورةً لسيادته أو جلالته، أو حضرته، فهي حالة من الجهل الفاضح، والغباوة المستحكمة.

لكن الخير في محمد ﷺ وأمةِ محمد ﷺ إلى يوم الدين، ولولا هذا الخير وهذه الخيرية لما حرّكت يدًا، ولا جرّدت قلمًا، ولَخرجت إلى الصُعداء أجأرُ، اللهمَّ سلّم سلّم.

رغم أنَّه قد خرس القلمُ، وعجز اللسان على أن يُعبِّرَ عما في خاطري ووجدي، إلا أنني قد شرعته وأشهرته في محاولة تمنيت لها النجاح بأن تصل لولدي وأخي وصديقي وجاري ووطني وعالمي بأسره؛ لأنَّ الأقلام في أيدي أصحابها أمانة وضمير لا يُباع ولا يُشترى، فالقلم سلاح يمكنه أن يهدم ويقتل، ويمكنه أن يبني ويحمي.

سلاح قد تكون كلماته أقوى من الرصاص عندما تُلامس القلوب والعقول، لذلك خلقت الفراغات بين الكلمات والعبارات؛ ليملأها الإنسان، ولتجد القلوب لها مكانًا، والعقول لها موطنًا تطير حيث شاء الله لها أنْ تطير أو تهبط _إن شاءت_ عندما يبدأ إيمانك بقدراتك.

فلا أرى الحياة إلا معركة، الشتاءُ يقاتل الصيف، والشمسُ تقاتل القمَر، والنمرُ يُطارد الإنسان، والإنسانُ يخشى الكلب، والكلبُ يُطارد القطةَ، والقطة تطارد الفأر، والفأر يُفزع الإنسان، معركة الحياة ودورتها.

لتبقى المعركةُ بينَ الخيرِ والشرِّ، بينَ الحقِّ والباطلِ، الأبيضَ والأسود، مع وضد، بينَ ظالمٍ ومظلومٍ، سالِبٍ ومسْلوبٍ، آسرٍ ومأْسورٍ، ضحيةٍ وجلاد، بين سجّانٍ وسجين.

فمحالٌ أن يهدمَ بناء الباطلِ فرد واحد في عصر واحد، وإنَّما يهدمه أفراد متعددون في عصور متعددة، فيهزَّه الأولُ هزَّةً تُباعدُ ما بينَ أحجاره، ثم يُنقصُ الثاني منه حجرًا، والثالثُ آخر، وهكذا حتى لا يبقى منه حجرٌ على حجر، وتظهرُ الحقيقةُ واضحةً وضوحَ الشمسِ في سمائها.

ولا يستطيعُ الباطل أن يصرعَ الحق في ميدان؛ لأنَّ الحق وجودٌ، والباطل عدمٌ، إنَّما يصرعُه جهل العمل بقوَّته، ويأسهم في غلبته، وإغفالهم النداءَ به والدعاء له، وهذا لن يحدثَ في ميداننا؛ لأنَّنا نُدركُ عدم الباطلِ؛ لذلك ما زِلْنا نُقاتله ونُصارعه جيلًا بعد جيل.

وتبقى معركة الخير والشرِّ قائمة ميدانها الكرة الأرضية، وجنودها البشر، وسلاحُها السيف والقلم، وأجسادهم الأقوياء الذين يستطيعون أن يصرخوا وسط هذه المعمعة صرخة الشجاع في المعركة؛ لتصدر صوت حريق أعواد القصب؛ ليُعلنوا للعالم عن فكرهم وعلمهم، أو لِيُظهروا آلامهم ومعاناتهم وأفاعيلَ ظلمِ الدهرِ بهم، أو لِلسببين معًا.

أمَّا الفلسطيني منذ سبعين عامًا وتزيد، في وسطِ أكبر معركةٍ في تاريخِ البشرية، ورغْم كلِّ الاتهامات بأنَّه خانَ! وباعَ! وفرّطَ في وطنه، إلَّا أنَّه ما زالَ يُمَعْمِع، يصرخُ وسْطَ هذا الميدانِ الصغير قياسًا مع العالم الكبير في قلبه، الذي تُقدَّر مساحته بسبعةٍ وعشرينَ ألفَ كم2، وتزدادُ تسعًا.

ما زال يقولُ: ها أنا ذا لم أمت، ما زلتُ أقاوم، ما زلتُ أُدافع، رغم تخاذل المتخاذلين، وتطبيع المتطبعين، فلا للظلم، لا للاحتلال، لا للسلب، لا للنهب، ننتصر أو نموت، فلا مات كريم، ولا عاش ذليل.

لا زالَ الفلسطيني يُقدِّمُ التضحيات التي لا يعرفُ عنها العالم إلا اليسيرَ؛ لأنَّه _ببساطةٍ_ الخبر ليس كالعيان، فقدّمَ النفسَ والنفيسَ، والغاليَ والرخيصَ، الشهيدَ والأسير، وما زالَ مُشْرعًا صوتَه وقلمه؛ ليصرُخَ ويكتب، وها هو الأسيرُ اليومَ يكتبُ؛ ليُقيمَ الحُجَّةَ على القاصي والداني، فما يُكتبُ مِنْ رحمِ المعاناة، ومن آتونِ المعركةِ هو أصدقُ وأبلغ.

يكتبُ رغمَ أنَّه ليس بكاتبٍ، ويروي رغمَ أنَّه ليسَ بروائي، لكنَّه يكتبُ ما فُرِضَ عليه أنْ يكتب، فقُيِّدت حُريَّتُه، حتى موضوع كتابته لم يَعُد له الخيارُ بانتقائه، فطارَ وحلَّقَ بخيالِهِ وواقعه؛ لينسجَ قصةً أقرب للواقع منها إلى الخيال، ركَّبها مِنْ بين آلافِ الأحداثِ والوقائع والحقائقَ مختزلًا إياها في شخصياتٍ محدودةٍ، ومعلوماتٍ مثبتةٍ، وواقعٍ مُعاش، جرَّبَهُ وخاضَهُ حوالي مليون فلسطيني، وما زالوا يزدادونَ عددًا.

1

خَرَجَ وَلَمْ يَعُدْ

فجأةً، ماتَ الموتةَ الأولى، موتةَ الحياةِ الدُّنيا، دُونَ أنْ يقولَ وداعًا، خرجَ ولم يَعُد، انتقلَ إلى رحمته، لكنْ ليسَ إلى رحمته تعالى. انتقلَ ليكونَ تحتَ رحمةِ ظالمٍ يَدَّعِي العدل، وسارقٍ يدَّعي الحقَ، ومسافرٍ يدَّعي الإقامة.. إنه الصّلف بعينه؛ ليُدفنَ في قبرٍ مظلمٍ، وأيُّ ظلمٍ وظلام! بل ظلماتٍ بعضُها فوقَ بعض، إذا أخرجَ يدَهُ لمْ يَكَدْ يراها.

تأخَّرَ في الاتصال، ازدادَ قلقُ العائلةِ، بحث عنه الأهلَ والأقاربَ والأصدقاءَ والأحبابَ بحثَ الأمِّ عن رضيعها، فلم تقع آذانهم على أدنى خبر، ولمْ يتعثّروا ببصيصِ أمل، فكل ما يعرفونه أنَّه انطلقَ بعد صلاة الفجر مسافرًا، شهر رمضان المبارك؛ لزيارة بيت الله الحرام، وزيارة نبيه محمد ﷺ.

لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره إلا أنَّه ترك خلفه دراسته وأهله _خاصة والده_ الذي كان يعتمد عليه اعتمادَ الرضيع على أمه، وأصدقاءه الذين كانت له المكانة في قلبهم ولهم في قلبه، ترك خلفه الشارع الذي أحبّه واحترمه وقدّره فيه كل من رآه.

لا تُعرَف قيمة الأشياء إلا عند فقدها، ولا تُعرفُ قيمةُ النَّعمة إلا عند زوالها، ورغم أنَّهم كانوا يعرفون بعضًا من قيمته إلا أنَّ موته كان صادمًا، وفقدانه كان مُفجعًا.

الأب راجع حساباته في لمحِ البصر، كما سكرات الموت التي يرى فيها المُسجَّى على فراش الموت شريطَ تاريخه يُعرَضُ أمامه قبل أنْ يرتدَّ إليكَ طَرْفُك، يا ليتني لم أصفعه عندما اتّهم ظلمًا بكذا وكذا، يا ليتني لم أثقِّل عليه الحمل، آه.. لقد قصم ظهري!

الأم: يا ليتني كنتُ أُشعره بالحب والحنان، أُجَّهز له حساءه قبل أن يعودَ من عمله الشاق، فقد كان من المدرسة للعمل ومن العمل للمدرسة، ليتني لم أقُل له: «كُلني» عندما كان يطلب طعامه، يا ليتني قلت له: سلامتك، يوم شُجَّ رأسه أثناء العمل، قالت: يا ويلتاه أعجزتُ أنْ أكونَ كالأمهات.

الأخ.. الأخت.. يا ليتنا كُنَّا نُساعده، فقد كانت الدنيا على رأسِه، رغم صغر سِنِّه كان يعملُ عملَ الكبار!

الأطفال منهم.. ما أصدقهم.. قبلَ أنْ تُلوِّثهم الأيام، فلم يناموا ليلهم؛ لأنَّهم اعتادوا النومَ في أحضانه وليس أحضان أمهم، وإسناد رؤوسهم إلى صدره وكتفه، والقبض على أذنه ومداعبتها حتى الصباح.

الصديق.. الحبيب.. والجار، يا ليتنا ودَّعناه، يا ليتنا سهرنا وتسامرنا معه، يا ليتنا وقفنا بجانبه كما كان يفعل، يا ليتنا سافرنا ومتنا معه، فالموت مع الجماعة رحمة، يا ليتنا لم نُولد لنشهد يومًا عصيبًا كهذا، فيوم القيامة على اشتداده أرحم، لكن مذ خُلِقت (يا ريت) فلم تُعمِّر بيتًا بل أخربت!

اسودَّت الدُّنيا بظلامٍ حالك فلم يَعُد أحدٌ يرى، ولا يدري أَهُوَ سواء الواقعة أم أنَّه أصبحَ ضريرًا، فقد وقعت داهية الدواهي، ومصيبة المصائب، وخربت البيوت العامرة، وما بكى إذ بكى الباكون إلا لفقدانه، فلقد غربت الشمس الباهرة.

سهروا ليلهم، وقضَّت مضاجعهم، صرخوا صرخاتٍ أمطرت دموعًا قدَّ الخدود، فإذا ما نظرت إليهم وجدت قلوبًا يدبُّ فيها اليأس دبيبَ الآجال في الأعمار، وأكبادًا مقروحة، لو عرضتها في سوق الهموم والأحزان ما وجدتَ من يبتاعها منك بأبخس الأثمان.

بدأت الزيارات والمراسلات، كلٌ يذكُر ما مضى من أيامه وسالف عهده، راح الغالي، راح الأمل، الحياة، القمر، النجم، الفرح. لم يعد للسعادة

مكان، وأصبح الكون فارغًا _بالنسبة لهم_ إنَّ في ذلك لآية للمتفكرين، وعبرة للمعتبرين.

الطامة الأكبر والأعظم من هذا كلِّه أنَّ الإنسانَ لا يثبت على رأي، فلا تغرنكم هذه المشاعر المؤقَّتة، ولا تلك المدائح المغدقة، غدًا أو بعد غد، ستصبح هباءً منثورًا، وستدخل لغة المصالح، بها تتحول الملائكة إلى شياطين والشياطين إلى ملائكة، والغزال إلى قرد، والقرد إلى غزال، وربما تبدَّل غزلانها بقرودها، فمعمعة الحياة كل شيء فيها وارد.

لقد خرج (يوسف) ولمْ يَعُدْ بعد!

2

شُرُوقُ الشَّمْسِ لا يَنْتَظِرُ النَّائِمِينَ

الكـونُ ينطـقُ بوجـود الله ووحدانيـة الله، فالكـون قـرآنٌ صامـتٌ، والقـرآن كـونٌ ناطـقٌ، ومحمـد ﷺ قـرآن يمـشي، فـكلُّ مـا حولـك يسـتدعي أنْ تتفكَّـر فيـه، فلـم يُخلـق الكـونُ ومـا فيـه عبثًـا فـكلُّ شيء خلقنـاه بقـدر.

كانَ نومُـه سُـباتًا، استيقظ باكـرًا قبـل أنْ يتسـلَّل أول خيـطٍ للفجـر مـن نافذتـه، صـلى الفجـر، فاطمـأن قلبـه، وارتفعـت كفـاءة عملـه، ودارت دورتـه

الدمويَّـة، فأصبـحَ مرتاحًـا، مرحًـا، نشـطًا بهـا، ثـم اسـتعدَّ لاسـتقبال غـاز الأكسـجين الـذي أراحَ أعصابـه ونشَّـط فكـره وبـث الحيـاة في عضلاتـه، وبـدأ ينتظـر الأشـعة فـوق البنفسـجيَّة التـي بـدأت تـزداد نسـبتها مـع بـزوغ الشـمس؛ لتحـرِّض جلـده عـلى صنـعِ فيتامـين (د) الـذي يثبِّـت الكالسـيوم في العظـام؛ لتـزداد قـوة وصلابـة.

بـدأت تعمـل مـادة الكورتيـزون؛ لتزيـد مـن فعاليـة الجسـم وترفـع مـن نسـبة السـكَّر؛ لتبلـغَ فعاليـة الأعضـاء أعـلى درجاتهـا.

أصبـحَ عالمًـا، عارفًـا، مـدركًا أنَّ أوامـر الله ومخلوقاتـه أعظـمَ بكثيـرٍ منْ أنْ نُفسِّرهـا بعلَّـة واحـدة، أو بحكمـةٍ واحـدةٍ فَحِكَمها وعِلَلها لا تُعَـدُّ ولا تُحْصَى.

أحـبَّ (يوسـف) أنْ يذهبَ بعيـدًا؛ ليتفكَّـر ويتدبَّـر، فتفكُّـر سـاعة خيرٌ من عبـادةِ سـنة، فشـدَّ رحاله وحزم متاعـه؛ قاصدًا بيـت الله الحرام، الكعبـة المشرَّفة، مركز الأرض، مركز الجاذبيَّة الأرضيَّة، أول نقطةٍ تُشرقُ عليها الشـمسُ، تجذبُ النـاسَ مـن جميـعِ أنحـاءِ العـالم لزيارتهـا، بلونهـا الأسـود اللائـق بهـا، وكسـائها المطـرَّز ـ يدويًـا ـ بخيـوط الحريـر المطليِّ بـماء الذهـب، أول بيـتٍ وُضِـعَ للنـاس، ببكَّـة، مكَّـة. ذكريـات الحبيـب، نقيـة نقـاء قلـب محمـد ﷺ، ناصعـة البيـاض، إذا مـا نظـرْتَ إليهـا مـن الفضـاء ـ رغـم سـوادها ـ كأنَّهـا كومـة ثلج على قمـة جبل.

ذهـب بخيالـه، بفكـره، بعقلـه، بأحلامه إلى هنـاك، قبل أن يخرج بجسـده مـن هنـا دون علـم بـأنَّ المـوت الـذي لم يَـرَهُ مـن قبـل ينصـب لـه فِخَاخـه بدهـاءٍ تـام السريَّـة، فـما زال صغـيرًا ـ حسـب التصنيـف العالمـي ـ لم يتجـاوز الثامنـة عـشرة مـن عمـره.

إلَّا الفلسطيني كما المعذبين يُولَدُ رجلًا؛ لذلك بإمكانه أن يُدْرِكَ أنَّ بمقدور الصِّغار أيضًا أنْ يموتوا ولأتفه الأسباب، فنُصبت له فِخاخ الموت وشباكه على معبر رفح البري الفاصل بين فلسطين ومصر «أم الدنيا».

سلَّم جواز سفره سويًا مع صديق العائلة (أحمد) إلى صاحب اللِّباس الأزرق من خلف مِنصة مرتفعة، والذي بدوره مرَّره عبر شُبَّاكٍ أسودٍ مِنَ الزُّجاج المُصفَّح إلى جبان متحصِّنٍ في مكتبه، وتَبِعهم جميع المسافرين، واحدًا فواحدًا، وعادت الجوازات بعد الفحص والتدقيق والتمحيص، وبدأوا يتحركون باتجاه الحافلة، إلا هو، أحضروا له حقيبتَه وقالوا: انتظر!

انتظرَ وعيناه لم تُفارقا حافلةَ الرُّكَّاب، وقلبه يخفق ألَمًا، وبدأت علامات الاستفهام وعلامات التعجب، أَضاعت الرحلة؟! أَضاعت زيارة الحبيب؟!

أشارَ إليه الرفيق (أحمد) من بعيدٍ مُودِّعًا: «لا تقلق، كن صلبًا كما عهدت أباك من قبلك، الموت للرجال، ونحن لا نموت إلا وُقوفًا كالأشجار».

انتظر وهو يلتفتُ يمنةً ويسرةً، لا يرى إلا المقاعدَ والكراسي والجدران والممرات والأزقة والشَّبَابيك وعمال النظافة والحراسة ببدلاتهم المختلفة اختلافَ لغتهم ولهجتهم، لا يسمع غير صوت أنفاسه، ودقات قلبه، هدوءٌ يخترقه طَرق الأبواب وصفقها، والخطوات التي تخطو كل حين.

ينظرُ إلى اللَّافتات في القاعة، يقرأ أعلى أحد شبابيكها «جوازات المصريين»، الشُّباك الثاني «جوازات الأجانب»، يبحث بنظره عن الأجانب فلا يجد إلا نفسه والمسافرين الذين ابتلعتهم الصَّحراء قبل دقائق؛ ليكتشف فجأةً أنَّه أصبح أجنبيًا مع سبقِ الإصرار والترصد.

هل يُعقلُ أنْ تكونَ أجنبيًا في بلدٍ عربي؟! أم أنَّه جرت العادة أن يُطلق لفظ الأجنبي على كل غريب عن البلد الأم؟! لكن لماذا في (سوريا) يكتبون «جوازات الإخوة العرب»، وفي الجزائر _بلد المليون شهيد_، ممر خاص وشبّاك خاص في مطاراتها أعلاه لافتة «الفلسطينيون».

لاحت له هناك نخلة، بل نخيل صنوان وغير صنوان، تتمايل مع الهواء، كأنَّ الوحي أنزل إلى مريم العذراء ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم:25]، رطبًا فيه المغنيسيوم والمنغنيز والنحاس والكالسيوم والبوتاسيوم، يمدُّ الجسم بالطاقة ويوفر له النمو والتجدّد، ويسهل عملية الولادة، ويقلل من كمية الدم، ويزوِّد جسم الحامل بالسكّريات سهلة الهضم، ويزيد من إدرار اللّبن، فسبحان الذي خلقه.

كأنَّ تلك النخلة ودّعته، وكأنَّه أدرك أنَّه لن يرى اللون الأخضر الذي يبعث على السرور والبهجة داخل النفس بعد اليوم، قالت له: أَمْعِن النظر هنا، وكلما انشغل بفكره هزَّت إليه بجذعها وداعبت الرياح شعرها؛ لتلفت انتباهه؛ لأنها كانت تعلم أنَّ ساعة الموت قد اقتربت، وأن الأجل قد حان.

الكرسي كأنَّه أفصح في تلك القاعة وقال: لن تقعدَ على مثلي بعد اليوم! والهواء: برحمةٍ ورأفةٍ، استنشِق منّي بقدر ما تستطيع فلن ترى

بعد اليوم هواءً بنقائي! والشمس المنبعثة من خلف القاعة: خُذْ مِنّي ما تستطيع من الدفء والطاقة، فلن تراني بعد اليوم إلا في المناسبات، إن كان هناك مناسبات!!

على حينِ غرّة، قطع خلوته صاحب لباسٍ أزرق، مصطحبًا إياه إلى غرفةِ التفتيش اليدوي، وأخذت المجنّدات حقيبته إلى التفتيش الإلكتروني، هنا أصبح (يوسف) يُدركُ نوع وشكل الموت الذي ينتظره، وأصبحَ يرسم بخياله شكلًا هندسيًا للقبر الذي سيُلحد فيه، وطريقًا لرحلته مع صديقه، لو كُتب لها النجاح، وسيبقى في صراعٍ فكري، تارة مع نفسه، وتارة مع صديقه، وتارة مع الاثنين في آنٍ واحدٍ، حتى يلتبس عليه الأمر مع من هو؟ مع نفسه أم مع صديقه؟!

هي معمعة الأفكار، كما معمعة الحياة، كما معمعة الحرائق، ومعمعة الحروب.

3

مُعَانَاةُ شَعْبٍ مُحْتَل

حمل الخائن الذي يتحدث العربية (يوسف) من المعبر إلى مستوطنةٍ قريبةٍ على متن عربية عسكرية صغيرة، بالكاد تتَّسع إلى اثنين أو ثلاثة، أنزله منها، وأجلسه مكبَّلًا بالحديد على كرسي من الفولاذ، بجوار مبْوَلة، مُغَطى العينين بعصبةٍ مِنْ قماشٍ أبيضٍ خشنٍ مُخططٍ بالسَّواد، وحقيبته بين رجليه، ينتظر المجهول.

الشمس تزداد سُطوعًا، وتُكشِّر عن أنيابها، وتُصبح أكبر ضررًا، ولم يبقَ إلا فكرة الحرية، حرية طيرٍ محلقٍ في السَّماء، فذهب إلى صديقه (أحمد) الذي وضع حقائبه أسفل الباص، فقد رآه يصعد الباص، لابُدَّ أنَّه سار به خارج أرض المعبر، مستقبلًا طريق الصحراء وهو يستند برأسه إلى الزجاج، ويُطلق العنان لنظره حتى خط الأفق، ليقوّي بصره وتزداد حدّته وكفاءته كلما نظر أبعد، ولن يملّ؛ لأنه أول مرة سيكتشف العالم، وإن أصابه الملل والتعب، سيتابع عدّ اللّافتات «القاهرة 370 كم، القاهرة 369 كم، القاهرة 360 كم.

ينظر إلى بحر الرمال الذهبي، هناك حيث تلامس السماء أرض البيداء، تلوح له الجبال في الأفق، بالكاد يرى قوافل السفن تجوب الصحراء مع صغارها، والأغنام مع راعيها، يا لهذا النقاء! هنا يعرف حجم الكون، فالسماء الدُّنيا والأرض وما بينهما بالنسبة للسماء الثانية كحلقة في فلاه، والسموات السبع، والأرضون السبع وما بينهما في فلاه، بالنسبة لعرش الرحمن، كيف لعقلي الصغير أنْ يَعيَ هذا الحجم؟!

بيوت متفرقة، تجمّع هنا، وتجمّع هناك، بعض المزارع الخضراء، والنباتات الصحراويَّة، أطفالٌ يحملون ثمار الخوخ بأيديهم، يبيعونها على قارعة الطريق لأصحاب المركبات المسرعة، امرأة صحراويَّة تحمل شيئًا على رأسها، وصغيرها متشبِّثٌ بطرف ردائها، صغار بملابسهم المدرسيَّة. آثار آليات عسكريَّة، ودباباتٍ عتيقة محروقة، كومة من الخردة من آثار حرب 1956م.. 1967م.. 1973م.

منذ أن خُلقنا ونحن نرى الدبابات تُدمِّر بيوتنا، وتقصف مساكننا، وتخرّب عَمارنا، واليوم نراها ركامًا مدمّرة.

ماذا كانت تفعل هنا؟! حتى الصحراء طمعوا بها واستكثروها على أصحابها، فعلًا قوم لا يأتون الناس نقيرا، عيونهم إلى ما في أيدي غيرهم، وإنْ كان قِطْميرا.

حياة في الصحراء، طريق طويل حتى القاهرة، أربع إلى خمس ساعات، لكنَّ (أحمد) سيقصد الإسماعليَّة، عبر خط العريش – القنطرة إلى نويبع، تاركًا المعبر الحدودي خلفه، ثم رفح المصرية، ثم (المطلة) سائرًا وسط مزارع الخوخ، و(الماسورة) وقرية (أبو طويلة)، (الكوثر)، (القواسمة).. يتقدم ويتقدم حتى موقع القوات الدوليَّة، ثمَّ مُنحنى الموت الذي سقط عليه المئات من الضحايا بسبب حوادث السير القريب من تجمع (العبيدات) ثم (الكاسكه) _قرية من قرى العريش_، حتى يصل التِّلال الرمليَّة الشرقيَّة في منطقة (الرِّيسَة) ويُواصل مع هذه الطريق الطَّويل التي تتسع وتضيق، وتتشابك وتتشعب الأسماء في رأسه فلا يعرف مَنْ قبل مَنْ، ولا مَنْ بعد من، حتى يصلَ «نُويبع»، ليصعد المعديَّة المسافة ثماني عشرة ساعة تقريبًا.

الرقم هو نفس رقم سنوات عمري التي مضت، لكن شتَّان بين هذه وتلك، بين رقم ورقم، الطريق وعرة، والحوادث مميتة، صديقي (أحمد) بجوار السائق؛ لأنه لا يحب النوم، يحب الطبيعة، اكتشاف المستقبل، يقظ وحذر؛ خوفًا أن تأخذ السائق سِنَةٌ من النوم، فيهوى بهم سبعين خريفًا إلى

قعر الوادي، ولن يجد حينها من ينقذهم من نقاط التفتيش، والإسعاف بعيدة، والمستشفيات أبعد.

يتفكَّر في الذي خلق الكون، بل خالق الأكوان، وكيف خلق الإنسان وقدّر له رزقه، الناس وسط البطحاء، من أين يشربون؟! من أين يأكلون؟! كيف يتحملون الأيام المعمعانية، والليالي القارسة؟! كيف يرزقون على هذه الطرقات؟! رغم أنه ممنوع أن تقف مركبات الأجانب المحاصرة بالحراسة من أمامها وخلفها، ممنوع عليها أن تقف على قارعة الطريق لأي سببٍ من الأسباب قديمًا كانوا يُرَحّلون عبر الحافلات من المعبر إلى المطار مقيَّدي الأيدي، تمامًا كالأسير في سجون الاحتلال.

كيف يتعلم الأطفال؟! أين المدارس؟! أين معالم الحياة؟! لماذا لا يدخلون من التيه كبني إسرائيل؟! إن الذي تكفَّل بعد الحرب العالمية الثانية أن يُحافظ على النسبة الثابتة بين الذكور والإناث، هو الذي حافظ على هذا الإنسان وسط الصحراء، وسخر له كل شيء.

بعد الحرب العالمية الثانية، أصبحت نسبة النساء إلى الرجال، أربعًا إلى واحدٍ، وماهي إلا أعوام قليلة حتى عادت النسبة إلى تلك التي وضعها وحدَّها خالقها، فأصبحت مائة وخمسة بالمائة ذكور، وخمسة وتسعين بالمائة إناث، وهذه النسبة ثابتة في كل البلاد، وكل الأمصار، وكل القارات، وفي كل الأزمان، رغم أن هذا عقيم، وتلك عاقر، وذلك لا يُنْجب إلا إناثًا إلا أنَّ النسبة تبقى ثابتة، فالذي تكفَّل بهذا تكفَّل بذاك، ولله في خلقه شئون.

اصطفَّت المركبات على الإسفلت المقسَّم إلى حارات، كل حارة أمامها برميل فارغ، يُشكِّل حاجزًا أمام (المعدّية)، وما إن تفتح بوابتها حتى يتقدَّم صاحب البذلة العسكرية مُبعدًا البرميل جانبًا، سامحًا لأربع مركبات من كل حارة بالدخول، متنقِّلًا بين الحارات فاتحًا ومغلقًا، حتى آخر مركبة.

تُغلق السفينة (المعدية) فمها، وتطبق على أسنانها مبتلعة حمولتها، وتسير بهم قاصدة البر الثاني، أعتقد جازمًا أنَّ (أحمد) لم يضيّع تلك الفرصة الذهبية، ونزل من الباص؛ ليتشبث بجدار (المعدّية) الحديدي، ينظر إلى نجوم السماء مرّة، وإلى انعكاساتها على الماء مرة أخرى، محدِّقًا نظره، مخترقًا الماء اللامع، محاولةً منه لرؤية الشعاب المرجانية الجميلة في قعر البحر الأحمر، يريد أن يقفز ويغوص بين الشعاب؛ ليرى الأسماك الطليقة وبهاءها، الحرة وجمالها، الحذرة من الوقوع في شِباك صياد، أو صنارة هاوٍ، فإن كانت الأسماك قد نجت فإن (يوسف) لم ينجُ.

ساعة تقريبًا من نويبع حتى العقبة في (المعدّية) التي يوجد بها درجة أولى ودرجة ثانية، السفر مريح والمناظر خلاّبة ما بين جبال الدول الأربع (مصر، فلسطين المحتلة، الأردن، السعودية) كما الطريق من نويبع إلى القاهرة، سلسلة جبال صامتة شامخة، وواحات وسط الصحراء، واستراحات، وشوارع مرصوفة هادئة تمر من نفق الشهيد أحمد حمدي تحت قناة السويس، حتى تصل القاهرة بعد سبع ساعات.

4

قَدْ تَشْكُو وَالخَلَائِقُ كُلُّهَا تَشْكُر وَقَدْ تَغْفُو وَالنُّجُومُ كُلُّهَا سَاهِرَةٌ

اقترب الليل منْ مُنتصفه، بل أوشك الفجر على البزوغ؛ ليُعلن عن يوم جديد، على عملك شهيد، ولَن يعود إلى اليوم الموعود، و(أحمد) يسير، يواصل الطريق، بجسده، يرى الكون وأسراره كما يرى الأعمش، جسده على الكرسي، خياله، مشاعره، هناك مع صديقه (يوسف).

(يوسف) مقعد على الكرسي مُكبَّلًا، جالسًا بجسده، لكنَّ قلبه مع (أحمد) الذي يرى ويتحدث مع صديقه (يوسف)، يهذي باسمه، يصرخ عليه، إيمانًا منه بأنَّ الصوت سيصل كما وصل صوت عمر بن الخطاب إلى قائد الجيش سارية، عندما ناداه محذرًا: يا سارية الجبل؛ لأنَّ (أحمد) يُؤمِن بالعلم، يعلم أنَّ هذا هو (البث التلباتي) الذي عجزت البشرية عن صناعته، كما عجزوا عن صناعة الموجات القصيرة والمتوسطة والطويلة، فأقصى ما فعلوه، أن اكتشفوا وجودها واستغلوها.

لابدَّ أنَّك جالسٌ على الكرسي الفولاذي، مكبَّلًا مذ فارقتني، بجوار دورة مياه، أو مكبٍّ نفايات، والأهم ممر مشاة، تحت حرِّ الشمس، وسياط الجلاد، وبرد الليل، تتلقى اللَّكمات من الداخلين والخارجين، الذاهبين والآيبين، بصبر وإيمان، جسدك النحيف، كيف له أن يتحمَّل الجوع والعطش؟! التعب والإرهاق؟! العذابات والآلام؟! أما زلت جالسًا كل هذه الساعات؟! ماذا حدث لهيكلك العظمي؟! تفكَّك؟! أم تساقط كأوراق الشجر؟! كيف تعرف الوقت؟! حتمًا جردوك من ساعتك.

أنت صاحب عذر، الصلاة لا تسقط عنك بحال، صلّ بوضوء أو بغيره، جالسًا أو قائمًا، مضَّجعًا، بعينيك، بقلبك، مستقبلًا القِبلة أو مستدبرها، لا فرق على أي حال كنت، أينما تولوا وجوهكم فثمَّ وجه الله، عليك بالخشوع والدعاء؛ لتصعد من على كرسيك إلى السماء، سيجلو الله عنك الحزن، وسيذهب عنك الهم وسيبدلك مكان حزنك فرحًا.

كن كالذي ذهب لِصلاته، تدبَّر قرآن ربه، صعد بخياله إلى السماء؛ ليرى النور ويدخل في حالة الخشوع التام، كما الصوفي الذي يُحلِّق في

الفضاء، حالة من الانخطاف _كما تسميها الروايات_ بسكين نحروا لحم قدمه، بمنشار نشروا عظمه، بالزيت المغلي غمسوا رجْله؛ ليقف نزيف شرايينه؛ حتى لا ينتشر المرض إلى أحد أعضائه الأخرى وهو لا يزال في حالة الخشوع حتى انتهى من صلاته، من يستطيع أن يفعل ذلك؟! كان على يقين أنه يستطيع أن يخشع، لذلك طلب أن تبتر قدمه وهو في هذه الحالة، الصلاة حلقة الوصل بينه وبين خالقه، فكان له ذلك ولم يخذله ربه.

لا عليك، قد صدّقوا قصص الروايات، وغرائب الأديان، ومعجزات العُبَّاد والكهَّان، وأساطير الزمان، صدّقوا من يسير على الجمر!! ومن يصلي في المغارة منقطعًا عن العالم بلا طعام أو شراب، صدّقوا (النير فانا) ولم يصدقوا الخشوع عند المسلمين وهو أسهل وأبسط.

الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، فارفع منسوب إيمانك للقمة، ستشعر حينها بالخشوع وقيمته، فلا يشوبَنّ إيمانك رياء، لا دهان، ولا يخالط يقينك خداع ولا كذب، أنت أنت، كن كما أنت، كالثلج الناصع في صحراء سيبيريا.

يحملك اثنان بلباسهما العسكري بعد منتصف الليل، وأنت مُثقل بالجراح، ومضرج بدمائك، وعلى متن عربة عسكرية، سمعت عن تلك الطريق كثيرًا، رحلة الآلام، مئات، بل آلاف من أبناء الشعب قد سلكها، من معبر رفح البري إلى الطريق الحدودي حتى أقرب مركز، ومقبرة لدفن المقبوض عليهم في قبورها، حوالي الساعة أو تزيد.

ستسير بك قافلتك العسكرية بحراسها من معبر رفح البري إلى مقبرة (عسقلان) بقبورها الموحشة، تحاول إسناد رأسك إلى ظهر الكرسي،

رافعًا إياه الى السماء؛ لتتمكن من تحت الغمامة من رؤية أضواء الجادة المحفوفة بأشجار (الكينيا) الضخمة الشاهقة المتشابكة، تستنشق آخر جرعات من الهواء النقي المعطّر برائحة زهورها.

تَعُدّ اللافتات، تقرأ أسماء بعض المغتصبات بالإنجليزية والعربية، وأسفلها بالعبرية _التي لا تعرف كيف تُقرأ_ أسماء الشوارع، مفترقات الطرق، الإشارات الضوئية، المسافات، تاركًا من خلفك يمنة أو يسرة، رفح، عزّاتة، مفتاحيم، أوفوكيم، كوسوفيم، العين الثالثة، المواقع العسكرية، النمر، أبو مطيبق، ناحل عوز، ملكة، لا تذكر أيهما قبل الآخر، وأيهما التالي، حتى تصل مفترق (سعد).

إلى (عسقلان) يزداد الخط السريع اتساعًا، والمركبات زعيقًا، والشاحنات زفيرًا، والأضواء إنارة، عن يمينك بلاد لا تعرفها، اغتصبوها قبل ميلادك، يعرفها أبوك وجدك شِبرًا شِبرًا وفِترًا فِترًا، وعن يسارك تلوح في الأفق أضواء أبراج غزة مخترقة حلكة الليل، فقد قلبوا الجغرافيا في ذهنك رأسًا على عقب، فقد خرجت من أقصى الجنوب والآن أنت في أقصى أقصى الشمال، تنظر إلى الجنوب لترى منه شمال بلدك، «غزة».

ما زلت تتلوّى من الجوع، تلوِّي الأفاعي المضطربة فوق الرمال الملتهبة تحت الشمس المحرقة في صحراء المجهول، تسير بلا دليل، صحراء تتخلّلها حقول ألغام؛ لتزيد التعقيد تعقيدًا، رغم ذلك لم تيأس ما زلتَ محلِّقًا بعيدًا نحو الفضاء؛ لتبحث عن كوكب أو نجم أو شهاب عابر يدلك على الطريق، ويهديك السبيل، فلا نجم سهيل، ولا نجم الشمال ليرسم لك المسار لتصل إلى برّ الأمان.

5

وَا رَحْمَتَـاه لِلغَرِيبِ فِي البَلَدِ النَازِحِ مَـاذَا بِنَفْسِهِ صَنَعَا

فَـارَقَ أَحْبَـابَهُ فَمَـا انْتَفَعُـــوا بِالعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ وَلا انْتَفَعَا

مـرَّت السـاعات، الأهـل الأحبـاب سـعداء بـما أقـدم عليهـم ابنهـم الأكـبر في هـذا السـن المبكـر، وبـدأوا يُخمِّنـون، يتوقعـون طريـق الرحلـة، الوالـد والوالـدة، لهـم تجـارب سـابقة، زاروا البيـت الحـرام أكثـر مـن مـرة، يحفظـون الطريـق البريـة إلى البلـد الحـرام، كـما لـو أنهـم مرشـدون سـياحيون، يميِّزونهـا كـما تميِّـز الشـاة خرافهـا مـن بـين القطيـع.

الآن مـازال (يوسـف) و(أحمـد) ينتظـران في صالـة المعـبر الحـدودي، معـبر رفـح الـبري، انطلقـوا، بـدأوا المسـير إلى العريـش في الطريـق الطويـل، طـول المعانـاة، إلى الإسـماعيليَّة، يحتاجـون إلى آخـر الليـل ليصلـوا (نويبـع)، ينتظـرون مواعيـد عمـل (المعدّيـة) للعبـور إلى الـبر الثـاني.

رغـم أن غيـاب (يوسـف) عـن البيـت شيء رتيـب رتابـة الأذان والصـلاة، اعتـاد الأهـل عليـه منـذ طفولتـه، فلـم يكـن يردعـه رادع عـن الخـروج ليـلًا للسـهر، التمتـع بهـدوء الليـل، سـكونه، نجومـه، أجرامـه، ينـام في المسـاجد مـع المشـايخ، يُرابـط عـلى الثغـور مـع الثـوار، يرصـد تحـركات العـدو وقوافلهـم التـي تهاجـم الآمنين وتروّعهـم في القـرى والمدن تحت جنـح الظلام، كاللصـوص وقطـاع الطـرق إلا أن هـذا الغيـاب كان مختلفًـا، له شـكل آخر، ربما هـو القلـق الطبيعـي، ربـما لمعرفـة خطـورة الطريـق، ربـما للأوضـاع الأمنيـة مـع بدايـة انتفاضـة الأقـصى، ربـما.

يترقَّبـون اتصالـه، كـما يترقـب الغريـق سـواد السـفينة، متعطشـين لسـماع صوتـه تعطُّـش القرصـان إلى سـفينة ضالـة، مدركـين كمائـن المـوت التـي ينصبهـا الاحتـلال عـلى المعابـر والحواجـز، فقـد أصبحنـا في بلـد الحواجـز.

لم تحدثهـم أنفسـهم ـ ربـما ـ يومًـا أن ابنهـم قـد يكـون مقاومًـا لـه يـد في عمـل مـن أعـمال الثـوار هنـا أو هنـاك، فـما زال صغـيرًا، حديـث عهـد بالحيـاة، مـع أن فلسـطين لا يوجـد بهـا صغـير ولا تنجـب صغـارًا، فهـم كـما أغلـب الآبـاء، لا يعلمـون عـن أبنائهـم غـير أسـمائهم، وإذا ازداد العـدد، نسـوا الأسـماء أيضًـا!

من رزقه الله ولدًا بارًا، صالحًا، مُطيعًا، مؤمنًا فليحمد الله، ففي ظل بداية الانفتاح، وعصر العولمة، والذي يزداد مع مرور السنين، خاصة في ظل التقدم التكنولوجي الذي بدأ بالتسارع، سرعة البرق، فلم يعد ولن يعود للآباء على الأبناء من فضل، ولا حتى فضل الوجود، ولن تعود التربية لعهد القرية والبيدر، فالتوفيق والفضل أولًا وأخيرًا من الله، ألم تسمع أن شيخًا أنجب لِصًّا، وأن جاهلًا أنجب عالمًا، وأن وضيعًا أنجب شريفًا، وشريفًا قد أنجب وضيعًا! فمن الذي هدى هذا وعلَّمه، وأضل ذاك وأجهله؟! أين دَور الآباء الذين ينامون؟! وأين الأبناء الذين يسهرون ويتسكعون؟!

الأطفال الذين يتشاجرون، يتكايدون على سذاجتهم كما الصغار، الكل يُدلي بدلوه، أخي سيحضر لي الدمية التي طلبت، ويخرج لسانه لأخته وأخيه اللذين بدورهما يُعيدان له الغيظ والكيد، وأنا سيُحضر لي أخي سيارة كهربائية، وأنا سيحضر لي عروسة كبيرة وجميلة، أجمل من هذا الدُّب القديم.

تزدحم الغرفة بالمتسامرين، المشاغبين، الأب ينظر، يُشارك صغاره، وأنا طلبت منه أن يجلب لي صفيحة تمر من تمور المدينة المنوّرة، لكن على رَسْلِكم تمهَّلوا قليلًا، إن أخاكم لم يصل (المعدية) بعد، أرجِئوا أحلامكم إلى الغد، ما زال المشوار في بدايته، والطريق بأولها، أمامه أسبوعان على الأقل ليعود.

الأم كما الأمهات، تنزعج من هذا الحديث، النار تأكل قلبها كما تأكل الحطب، بالحاسة السابعة _حاسة الأمومة_ تستشعر المستقبل، تكتشف

الخطر، كمخلوقات الله تستشعر الكوارث قبل حدوثها بأيام، فتنطلق مهاجرة، مغادرة منطقة الخطر، لكنَّ الأم أنَّى لها أن تُهاجر، هيهات هيهات، فهي راسخة رسوخ الشعاب المرجانية، رسوخ الصخر في قعر المحيط.

الأصدقاء يتسامرون، الثائرون يفتقدون، يشتاقون، وقد لجَّ بهم الشوق إليه لجاجًا طار بعقولهم، وذهب بألبابهم، هدِّئوا من رَوْعِكُم، كما يقول المثل: «ما خرج من القصر غير امبارح العصر». سيعود وستشبعون منه حدّ التخمة، وستكحّلون أعينكم برؤيته حدَّ الملل.

الأعمام، العمات، الخالات، الأخوال، كل في حياته الرتيبة، فلا أحد يعلم بما يدور من حوله، فكيف سيعرف ما يجري بعيدًا عنه، خاصة وأنَّ (يوسف) كان يستعين على قضاء حوائجه بالسر والكتمان، مهما كان الأمر بسيطًا، فكر سِنَة وتحدَّث ثانية على طريقه اليابانيين، دائم الصمت، يعتبر أنَّه ليس من حق أحد أن يطَّلع على شيء لا يعنيه، يكره القيل والقال، يغضب عندما يجد الحديث مع أحدهم قد طال قليلًا، كثير الحركة على طريقة المكن الألماني، تزداد فعاليته وسرعته كلما تحرك أكثر، يحب الاختصار والنتائج، فلا تقاس العقول بالأعمار، فكم من صغير عقله بارع، وكم من كبير عقله خاوٍ فارغ.

6

الأرواح جنود مجنّدة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف

استُبدلت الأرواح، وبقيت الأجساد، فرُوح (يوسف) كانت تسافر حيث جسد (أحمد) الذي مكثت رُوحه بجوار (يوسف)، فـ (أحمد) مع (يوسف)، و(يوسف) مع (أحمد) وهما مع الله، الذي ليس لهم سواه، في هذه المعمعة.

(يوسف) يبذل قُصارى جهده على أن يزم، ويتمالك نفسه، ويُمسك حُلمه بين يديه؛ ليركّز في مستقبله القريب، وقبره الذي سيُقبل عليه، فالعالم الذي ينتظره ملفّع بالغموض والأسرار، وما زال غير عالمٍ بما تكتمه ضمائر الأيام من الحوادث العظام، والخطوب الجسام، لكن محاولاته تفشل، ويذهب حيث صديقه (أحمد).

(المعدية) قد فغرت فاها للحافلة؛ لتسمح له بالدخول، ليصل إلى البر الثاني باتجاه الأردن، إلى (العقبة) لينزل متجهًا إلى الحدود الأردنية السعودية، عبر طريق صحراوي، بعد تفتيش المركبة بدقّة من جميع جوانبها، تفتيشًا محكمًا، من ثم التأكد من الجوازات، فالمسير في الرمضاء، طرائق جبلية وعِرَة لا تعرف فيها اتجاهًا، ولا مَعْلَمًا يدل على الحياة، باستثناء يافطة المسافات، وسفينة صحراء هنا أو هناك، وكلما مرت الساعات في المسير على قمم الجبال، فوق الجسور أو قعر الوديان فهم الركاب تعليمات المرشد، وبدأت ملامح الحياة بالبزوغ، استراحة هنا، محطة وقود هناك، بيوت شعر، حيوانات بريَّة، طيور جارحة، أشجار خضراء، بعض مساكن المدن، إلى أن يصل المدينة المنورة، يأخذ قسطًا من الراحة، بأجرة يومية، ليلة واحدة في إحدى الفنادق؛ لينطلق الجميع من جديد إلى مكة المكرمة على بعد 400 كم.

مهما فكَّر (أحمد) بصديقه (يوسف) فلن يستطيع أن يشاركه المعاناة، (أحمد) في رحلة على متن حافلة مريحة، يتحدث مع رفاق الدرب، ويستمع إلى المرشد، وينزل في هذه الاستراحة أو تلك، وكالبشر لن يستطيع صبرًا، فيسأل ويكرّر ويُلح؛ ليعرف الاستراحة القادمة التي لو صبر لرآها، حتى يضيق المرشد به ذرعًا.

سيكتشف برحلته عالمًا جديدًا بصحرائه، جباله، رماله، حيواناته، استراحاته، مدنه، طرائقها، مساكنها، إضاءاتها، أنوارها، إلى أن يصل فيتعرف على طيب وكرم أهلها، عاداتهم وتقاليدهم، لهجتهم، لباسهم الشعبي، نقاء قلوبهم وسلامة صدورهم.

بين الفينة والأخرى يعود (أحمد) إلى صديقه (يوسف) الذي عجز خياله وفكره _رغم اتساعه_ عن رسم صورة لرحلة ألم (يوسف) الذي بقي وحيدًا في فضائه وصحرائه، فشتان بين دم يسيل، وخيال يجول، فيدعو الله له بالرحمة والثبات، فهذا أقصى ما يستطيع، يفكّر كيف سيتّصل بالأهل ليسألهم، فربما يكون (يوسف) قد منع من السفر، وعاد إلى أهله مثل الكثيرين، وقد يكون اصطاده الاحتلال، وأحيل الى قبوره، ومدافنه، كعادة الأكثر، فأصبح شغلُه الشاغل في الطريقة والكيفية التي سيسأل بها عن صديقه، ويختار الكلمات المناسبة، يستبدلها ويستبدلها، يتمنى أن لا تخونه الكلمات والعبارات، ويُواسي نفسه، لحينها فرج.

لكنَّ (يوسف) مازال خياله يستطيع أن يرسم له الطرائق التي سلكها وسيسلكها (أحمد)، فقد درسها قبل الرحلة وعاشها وخبر بعض محطاتها، فأصبح يُقدّر تقديرًا هذه المحطات، يعيش معها محطّة محطّة، ويُضيف إليها المحطة الحالية، الواقعية التي يسكن فيها جسده الآن، وتقطن بها جُثّته، والتي كانت خارج الحسابات، خطوة غير متوقعة خطاها غصبًا عنه.

هناك فغرت (المعدية) فاها، وهنا أدارت المقبرة بوابتها الإلكترونية الضخمة؛ لتبتلع العربة العسكرية التي تُقِلُّ (يوسف) وحرّاسه، وتُحكم

أنيابها عليه، يخرج الحارس من ثكنته ليتأكد من العربة وحمولتها، فيسمح لها بالدخول، فيجد أن الثعبان الأقرع قد فغر فاه؛ استعدادًا لابتلاعها، فيتوقف فوق لسانه السام، ويُفتّش تفتيشًا دقيقًا عميقًا من الأسفل، الأعلى، الداخل، الخارج، الجوانب، يُدقّق في البطاقات، يتأكد من كل شيء، ثم ينفث الثعبان العربة مع بعض سمومه؛ لتدخل الجبّانة بعد بواباتها الثلاث؛ لتفرغ الحمولة في المقبرة الفسيحة، وتسلّم الجثّة المتحركة لحراس الجبّانة؛ ليمارسوا طقوسهم ونفث سمومهم على هذا الرفات، قبل أن يختاروا لها لحدًا ملائمًا.

(أحمد) وصل (الميقات) عند (بيار علي) _موضع إحرام أهل الشام_ أول ما يفعله دخول المسجد متوجِّهًا إلى الحمَّامات الممتدة لعشرات الأمتار، ليخلع ملابسه، يستحم، يتطهر، يستبدل ملابسه المدنية بملابس الإحرام، قطعتين ناصعتي البياض، لا تحتوي على خيط ولا رسم ولا تطريز، إلا النساء، الأبيض عادة وليس دائمًا دليل الطهارة والنقاء، يُصلي ركعتين، لبيّك اللهم عمرة، يدعو، يبتهل في طريقه إلى مكة، بيت الله الحرام، الكعبة المشرّفة.

نزل (يوسف) من العربة العسكرية، معصوب العينين، مقيّد اليدين والقدمين، رسيفا، استلمه صاحب لباس أزرق، حاقد، ذميم، دميم الخلقة، فتّش حقيبته، صادر طعامه، ملابسه، وجرّده بلا كياسه، وأصبح له الحق بأن يأمر وينهى، اخلع حذاءك، انزع ساعتك، فك حزامك، ادخل في الجهاز، لا يرن، اخلع ملابسك، تفتيش يدوي، ثم اختار له ملابس بنية اللون؛ ليرتديها بدلًا من ملابسه، وبابوج بلاستيكيًا.

بنطال وقميص، يبعثان على الكآبة، رغم أن اللون البني هو اللون الأكثر انتشارًا، وهو اللون السائد على الكرة الأرضية إلا أنه ممل، يدل على الرتابة، وعدم الفكاهة، وعدم التطور، ودليل على المسئولية والالتزام، وأي مكان أحق من السجن بهذا اللون، ومن يحب هذا اللون، كالسجّان الذي اختاره، فدليل على أنه يحب البحث عن عيوب الآخرين، ويعطي انطباعًا بالرخص والشح في ظروف معينة، فمن أرخص وأبخل وأقبح وأقذر من هذا السجان؟!

قشّر السجان (يوسف) من كل شيء، حتى من كرامته _لو استطاع_ قبل ملابسه، ثم وقّع على ورقة مقتنياته التي صادرها وهو يقلب بطاقة هويته الحمراء التي اختارتها (دولته) للفلسطيني؛ لتنتقم من الدولة العثمانية التي كانت تفرض عليهم اللباس الأحمر، وتسلّمهم البطاقة الحمراء، وترفق معهم الحراس، عند زيارتهم إلى فلسطين قبل أن يحتلوها ويغتصبوها؛ لأنها لا تأمن شرهم ومكرهم، وقد حصل المحذور، فأثناء وبعد وقبل الاحتلال، عاثوا فيها فسادًا ثم سلبوها وسرقوها، وعاثوا فيها خرابًا ودمارًا.

تجرَّع (يوسف) الألم، والإهانة، والذل، دون موت، وهو ينظر إلى صاحب اللباس الأبيض، مُدركًا، أن ليس كل ما يبرق فضة، وليس كل أبيض دليل النقاء، طلّ عليه شيطان بلباس ملائكة، خبيث بلباس طاهر، ونظر نظرة حاقدة، وبسبّابته أعاد نظارته إلى أعلى أنفه، ثم جذبها إلى أسفله، ودون ملاحظاته، ووقّع أسفل الورقة، ليست السعادة هي الضحك، فضحك (يوسف) رغم الألم، لهذا الفحص الطبي المتطور، فحص عن بعد، كأنه جهاز تتحكم به عن طريق (الريموت) الحاكوم.

مباشرة إلى غرفة المحقق القريبة، جلس (يوسف) على كرسي، تقترب مقعدته من الأرض، مقيد اليدين، مكبّل القدمين، كل رسغين مع بعضهما البعض، وقيد ثالث من سلاسل القدمين إلى حلقه مثبّتة في الأرض، أمامه طاولة مكتب المحقق، يعلوها جهاز حاسوب، عن يمينها شبّاك مغلق، مُسدلة عليه الستائر، أسفلها مباشرة مكيّف هواء بعرض الشباك، يزفر زفرات البرد، يبدأ (يوسف) بالانكماش على نفسه، أصفر لونه، انتصب شعره، يحجز الهواء الساخن داخل جسده، وبدأت عملية (الاستقلاب) بتحويل الغذاء إلى طاقة، وأضيفت لمعة الأوردة والشرايين لتقلل من كمية الدماء التي تجول فيها؛ ليحتفظ الجسم بحرارته المختزنة من حرق المواد الغذائية، لذلك يزداد لونه اصفرارًا كلما مكث أمام هذا المكيّف اللّعين.

انتظر وقتًا كان كفيلًا وكافيًا لأن يُشعره بالبرد، فبدأ يفرُك يديْه المقيّدتين ببعضهما ليشعُر بقليل من الدفء، وتزداد حدة التوتر مع كل زفرة وكل حركة خلف الباب الخشبي، ومع كل صوت قرقعة مفاتيح، أو قيود.

فجأة دلف إليه من الباب، طويل قامة، ضخم الجثة، حليق الشارب، أمرد، كثيف شعر الرأس، عريض المنكبين، هادئًا هدوء الذئب قبل أن ينقضَّ على فريسته، يريد أن يمثل دور الأب الحنون المهتم لمصلحة ولده؛ لأنه يدرك أن أفضل طريقة لإضعاف الخصم، إقناعه بأنك تقف الى جانبه، وتتألم لألمه، كأنه الناصح الأمين.

جلس على كرسيه وهو يلّف ساقًا فوق أخرى، جذب كرسيه إلى الطاولة؛ حتى التصق بها كرشه، وبنظرة مليئة بكل الأوصاف، والأصناف

التي تعرفها والتي تجهلها من الحقد، الكذب، الخداع، النفاق، ألقى التحية، فتح حاسوبه، أمسك بالفأرة، قلب صفحات حاسوبه، وبعربية ممتازة: «أهلًا (يوسف)، أهلًا وسهلًا، لقد اشتقنا لك، من زمان واحنا بانتظارك».

أنا الكابتن (أورى)، المحقق يلّي بدّه يمسك ملفك ويحقق معك، ويا ريت تتعاون معي شوي، حتى ما تعذبني ولا أعذبك.

- ،،،،

- جعان؟! تاكل؟!

- لاء!

- طيب تشرب شاي، قهوة؟، الخ؟

- لاء، شكرًا ع كرم الضيافة!

- اخنا اليهود كُرما، بس إنتو يا العرب ما بتعترفوا بهيك.

- ،،،،.

- طيب تشرب كاسة مي؟

- بإشارة من (يوسف) برأسه رفض.

- بلاش، بتدخن؟

- لاء، شكرًا.

واصل اللص النظر إلى حاسوبه، وبدأ بقراءة بعض المعلومات التي يعتقد أنها ستهز الجالس أمامه، أو على الأقل تجعله حيران.

- آه، (يوسف) علي نور أبو عرمان.

- آه!

- أخوك حسن وخضر ومحمد، وخواتك سعاد وفاتن وعبير، وأمك سلوى حامل سكان دير البلح

- ،،،،،.

- أها صحيح معلوماتي؟

- آه، هو إنت بتسأل ولّا بتجاوب؟!

- لا أنا بقولك خبيبي إنه اخنا بنعرف كل شي!

- والله! ما إنت لو سألت أي ولد في الشارع، راح يقولك هذي المعلومات! ويـن الجديد؟!

- لا بس فيه شغلات إخنا وبس بنعرفها، وإنت لحالك كمان بتعرفها خبيبي.

- ،،،،،

- حتى ما نطوّل عليك، بدّك تحكيلنا إياها، يعني بدّك تكُص الكصّة.

- ،،،،.!

- إنت مخرّب كبير حبيبي، ومن تنظيم مخربين.

- مـا كل فلسـطين بالنّسـبة إلـك مُخربّـة، حتـى الرضيـع والـلي في بطـن أمّـه، والـلّي في ظهـر أبـوه كـمان!

- مـاشي، بـما إنـك فيلسـوف كـمان، أنـا مـا بـدّي أطـول عليـك ولا عـلى حـالي، الوقـت اتأخـر بـدي أروّح، أولادي وزوجتي بيسـتنوني، وأنا مسـتعجل.

- أيّة أولاد وزوجة؟ العالم كله نايم هالحين!

- لا إخنا بنسهر حبيبي آخر الأسبوع زيكم الخميس بالليل.

- ،،،،،!

- يلّا قُص القُصة حبيبي.

- أي قِصة هاي؟

- عمليتك ضد جيش الدفاع، جيشنا يعني.

- أي عملية؟ وأي جيش دفاع؟ وأي بطيخ؟

- جيشنا يعني حبيبي، جيش «دولة إسرائيل».

- آآآه، جيشـكم!! ومـن وكتيـش بـالله صـار جيـش دفـاع، يعنـي ع الحسـاب انتـو مسـاكين، وبتدافعـوا عـن حالكـو؟! يعنـي مـا بتهاجمـوا؟! لـكان

مين اللي احتل البلد ودمرها سنة 1948م؟ ومين اللّي كمّل عليها سنة 1967م؟! غير القمع والدمار اليومي، ومين اللي احتل لبنان سنة 1982م؟ وانطرد مهزوم سنة 2000م؟! ومين اللي عمل العمايل في مصر؟!، أكمل ولّا بيكفي؟ أصلًا الوقت مش راح يكفي، راح يخلص عمري وأنا لسّه ما حكيت إشي؟!

- اخنا مش في السياسة هلحين خبيبي، نخنا في موضوع معيّن، قُص الكُصّة وخلّص، طلبي زغير وبسيط حتى ترجع لأهلك بسرعة، يلّا خبيبي.

ثم تناول قصاصة ورق كتب عليها بالعربية، وطواها بين اصبعيه، ومدّها إلى يد (يوسف) وواصل بلغته العربية الممتازة، رغم الخلل الواضح في بعض مخارج حروفها:

- وهي دليل إني بعرف كل شيء.

- ،،،،،،

- افتحها، وبتعرف إني بعرف عنك كل شي، وبعرف أسرارك، وبعرف أصحابك، وبعرف مع مين بتسهر، ومع مين بتطلع وبتنزل، ومع مين بتاكل.

- بالراحة علينا في هالمعمعة مع، مع، مع، مع.

- طيب افتح الورقة، واتأكد بنفسك خبيب.

فتح (يوسف) الورقة، فوجد فيها اسم (عماد) الذي كان معه في العملية العسكرية ضد جنود الاحتلال، فأصابته الصدمة، وكادت جوارحه

تفضحه، وكاد يُفصح عن خبيئة نفسه، لكنه زمّها، ونهرها، فقطع (أورى) عليه خلوته وصدمته.

- أهاا! يعني ما بدك تكص الكصة.

- الله أكبر لخمتني في هالقصة تبعتك كل شوي قص القصة!

- بلاش براحتك، بكرة الصبح بيجيك اللّي ما بيرحم، خلي المحككين يكتلوك هان.

- ،،،،

- رُوح نام، وارتاح، وكُل، وفكر بكلامي، وبكرة الصبح بنحكي، «ليلا توف» خبيبي _يعني تصبح على خير بالعربي_، ونظر إلى ساعته واستطرد قائلًا: بوكر توف خبيبي يعني صباح الخير بالعربي؛ لأنه مش ضايل إشي للصبح، أنا رايخ أروّخ، وكمان ساعة راح يستلمك المسلخ!

خرج المحقق وصفق الباب خلفه، وترك (يوسف) يتجمّد أكثر وأكثر، وبعد وقت قليل دخل عليه سجّان سمين، لحيم، ألبس الغمامة في رأسه، وفكّ قيده من الأرض، وتأكد من إحكامه على القدمين، وجذب (يوسف) من قيده، وسار به نحو الباب، ونزل به درجاته الأربع، وتقدّم به في دهاليز المقبرة، ومن زقاق إلى زقاق، ومن درجات معدودة هاوية، إلى درجات معدودات صاعدة، وهو يصرخ بين الحين والآخر (درج، درج) ويمنة ويسرة، ثم يسرة ويمنة.

أصوات تخترق الآذان، قرقعة مفاتيح، وجر سلاسل، حتى أوقفه، وفك قيده، ورفع الغمامة عن عينيه، بعد أن فتح بابًا حديديًا ثقيلًا يجذبه إليه، في ثلثه العلوي تقطن فتحة صغيرة، مقسّمة بقضبان حديديه دقيقة، لها باب بحجم كفّة اليد على شكل مزلاج عريض لفتحها وإغلاقها، أوسطه فتحة أطول وأعرض، لها باب بحجمها، يغلق ويفتح برفعه أو انزاله للأسفل.

زجّ بـ (يوسف) في ظلمات القبر، ودفع الباب خلفه بقوّة، ليلتصق لسانه بالحائط، وقرقع بمفاتيحه التي أدارها في الباب؛ ليحكم الإغلاق على اللسان ثم يزيد قفلًا من عنده، ثم يغادر.

ترك (يوسف) من خلفه وحيدًا، فردًا يتساءل عن حاله، ويفكر بماله، ويتعرف على واقعه الجديد.

7

الحَابل بِالنَابِل

في بلاد الحواجز، العبرة بالزمن، وليس بالمسافات، يمكث المسافر ليجتاز بضعة أمتار، ويمكث دقائق ليجتاز بضعة كيلو مترات، وذلك حسب مزاج الطاغية، حسب أوامر النّسخ التي استنسخها فرعون السادي، وحسب الفخاخ المنصوبة، والكمائن المرسومة.

كانت المصيدة الكبرى والفخ الأعظم والشِّباك الأمتن على حاجز (أبو هولي) في قطاع غزة، الذي يفصل بين مدينة (دير البلح) ومدينة (خان يونس)، فاصلًا جنوب القطاع عن وسطه، كما قال محمود درويش عند زيارته إلى غزة: «في ذلك الليل المقطع بالحواجز، والمستوطنات، وأبراج المراقبة، يحتاج المرء إلى علم جغرافيا جديد؛ ليعرف الحدود الفاصلة بين الخطوة والخطوة التالية، بين الممنوع والمسموح، كصعوبة العثور على الغامض والواضح في اتفاقيات أوسلو».

آه يا درويش، قلت ذلك قبل أن ترى هذا الحاجز، فماذا كنت ستقول لو رأيته وهو يعذب الطلاب، التجار، السكان، المارة؟! ولا يسْلَم من ذلك حتى أطفال المدارس! ماذا كنت ستقول اليوم عن ثمانمائة وخمسين حاجزًا وتزيد في الضفة الغربية؟!

حاجز عبارة عن برجين إسمنتيين، كثكنة عسكرية، بينهما حوالي 400 متر تقريبًا، بالكاد ترى الزجاج المصفّح الضيق أعلى البرج، بصعوبة ترى فوهة البندقية، كأنه وادٍ بين جبلين، يعتلي الجنود كل جبل، بحيث لا يراهم المارة، بمكبرات الصوت يأمرون وينهون، عن بعد يتحكمون في البوابات المكوّنة من جسري حديد ثقيل، منصوبة تحت كل برج خشية أن تداهمها مركبة مفخّخة تقلبها غبارًا ورمادًا وتجعلها أثرًا بعد عين.

تصطف مئات، بل آلاف العربات والمركبات من كل الأشكال والأحجام والأنواع والأصناف والألوان، كأنها مكدّسة فوق بعضها البعض، في مشهد مهيب، تنتظر أن ينبح ذلك الكلب؛ ليسمح لها بالدخول

عبر الحاجز الذي عرضه يسمح لسيارة واحده ذهابًا وإيابًا، تصطف خلف بعضها مُشكّلة أطول قطار، لم تتعرف عليه البشرية بعد.

يتفنّن ذلك القاتل تعذيب وإهانة المارة، فلا قانون يحكم تصرفات السادي، فتارة يطلق الرصاص في الهواء، وينبح بمكبرات الصوت آمرًا ركاب إحدى المركبات بالنزول، خاصة ليالي البرد القارس، يقشّرهم من ملابسهم تحت التهديد والوعيد، كما يجبر الفلسطيني في الضفة الغربية والقدس أن يهدم منزله بيده، وحتى لا تأتي آلياته وضباعه، وتجعلها ركامًا وحطامًا، وفرض غرامة مالية على صاحب البيت تعويضًا عن الطعام لجنوده وعن الشراب لآلياته.

يُغلق الحاجز من الجهتين، يأمر الركاب بالنزول وخلع ملابسهم وتركها في المركبة التي يقودها السائق إلى الطرف الآخر، وهم يركضون خلفه عراة، على مشهد ومرأى المارة، وعند الوصول إلى البرج الثاني، حينها يقرر صاحب البرج أن يرتدوا ملابسهم، ويفتح لهم البوابة الحديدية، أو يأمرهم بالالتفاف مرة أخرى، والعودة من حيث أتوا، ليقرر الذي أمرهم أول مرة ما شاء بشأنهم.

لذلك كانت هذه الأبراج والمواقع العسكرية والمستوطنات المحيطة بها، هدفًا دائمًا لرجال المقاومة، وللثوار، فاقتحموها عدة مرات بسيارات مفخخة، كما فعل «سامي عبد السلام» ورفاقه، ثم حفروا الأرض من تحتهم بأظافرهم، وأكلوها بأنيابهم ليخرجوا لهم من حيث لم يحتسبوا، كما حدث في موقع (محفوظة) العسكري.

ومرة يسمح هذا المتسلط لعدد من المركبات بالدخول، لتقع بين فكي الضبع، الذي يُحكم عليها الإغلاق بأنيابه، ثم يوجه كاميرات المراقبة؛ بحثًا عن هدفه المنشود ليخرج من جحوره، من خلف التلال التي رفعها ليتستر بها، ومكعبات الإسمنت التي بناها لتحميه من رصاص الأحرار؛ لتحاصر الجراء العربات المحاصرة أصلًا، فيلتف حولها بمدرعاته وآلياته العسكرية، كما تلتف الدلافين حول طرد السردين، فينهشوا منها حتى تمتلئ البطون، لكن الفرق أن السردين قد يُكتب لبعضها النجاة، أما هنا الأعين المتوجهة إليك، فأنت داخل قفص محكم.

يتقدمون نحو المركبة المستهدفة مباشرة، يبحثون عن فريستهم التي سقطت في هذه الحفرة، يفتشون، بنادقهم مصوّبة نحو الرؤوس والصدور، يصادرون البطاقات الشخصية، ينبشونها، حتى يحصلوا على مبتغاهم من أفراد المقاومة الثائرين ضد الاحتلال.

(حسن) كان أحد من وقعوا في هذا الفخ، كان الهدف المرصود، والفريسة المنتظرة، تناولته الأيدي بالصفع، والألسن بالشتائم، والأقدام بالركل، وأعقاب البنادق بالضرب؛ لأن الذئب لا يتخلى عن أنيابه، حتى ألقوه داخل آلية عسكرية بين الأقدام، وتحت الكراسي، كجرذ ظهر فجأة واقتحم على الجنود خلوتهم، فتناوله كل واحد منهم بما في يديه، وبكل ما أوتي من قوة.

مقيّدًا على عينيه عصبوا الغمامة، دون سؤال أو جواب؛ لأن في عقلهم الباطني أنَّ من تأتيهم الأوامر لافتراسه هو أسد جسور، ومحترف، يجب الاحتراس منه قبل أن ينقض عليهم، فيُفرّغون خوفهم المكبوت بالضرب والصراخ، ليشعروا بنشوة نصرهم.

يبقى يصرخ بصمت، حتى أنزلوه كشاة تقاد إلى المذبح، لكن الشاة يبقى عليها صوفها، أما هو فلن يبقى عليه إلا جلده الممزق، الملطّخ بالسائل الأحمر، الذي تدفّق من فمه وأذنه، ومن مسافات شعره ليتغيّر لون جلده الذي كانت عليه طبقات متعددة من الثياب التي ارتداها كي تقيه برد الشتاء، وبرد الليل الأشد، لكن بفنائها أصبح البرد لا يطاق والسياط لا تحتمل، فقد كانت حادثته هذه بداية الشتاء الذي لا تعرفه من تقلباته أهو شتاء أم صيف.

بجواره يستمع إلى صراخٍ، وآهاتٍ، وأناتٍ تتعالى من شدة الألم، فأصبح يهذي، ويعتقد أن أحدًا يتضامن معه، ويأمرهم بالتوقف، أنساه الألم أن في العذابات لا أحد يتضامن مع أحد، الكل نفسي نفسي، حتى أعز الناس وأقربهم وأطهرهم، هنا لا يختلف الحال كثيرًا عن يوم الحاقّة إلا غزة التي تتضامن وتدافع عن الجميع ولا تيأس، حتى مع الأسماك في قعر المحيط ضد الحيتان وأسماك القرش.

إنه (مراد) ألقى القبض عليه، ممتشقًا سلاحه، متمنطقًا بالذخيرة في أحد المستوطنات المجاورة التي يأخذ جنود وحراس هذا الحاجز قسطًا من الراحة بداخلها؛ لينتقم من أفاعيلهم بأبناء شعبه على هذا الحاجز.

بعد اشتباكٍ مسلّحٍ، تمت السيطرة عليه مُصابًا، واقتادوه إلى المدافن دون أن تشفع له إصابته، ولم تجد في القلوب إلا قسوة، فكان عذابه أشد، كمن يصُبُّ المِلح على جرحه.

مع اقتراب الليل، انتهت عدّة وجبات من العذابات، والآلام، يحاول كل منهما التعرف على الآخر، بحثًا عمن يواسي أو يتوجع، بعد

أن أدركا أنهما في نفس المأزق، ولكل منهما حكايته، وهذا يسأل من معي؟ وذاك يقول معك! والجندي يصرخ، ولا تسمع إلا المعمعة، فأنَّى لهم التعارف، وهم معصوبو الأعين كالأعمى، ومقيدو الأيدي والأقدام كالأفدع، مثقلون بالجراح والآلام كالأبتر.

في شاحنة عسكرية ضخمة، اختفيا بين أقدام الجنود التي داستهم، والأفواه التي أسبغتهم بالإهانات والشتائم، وتحت جنح الظلام فغرت بوابة (كيسوفيم) فاها، بالقرب من مقبرة المصريين الذين قاتلوا على أرض فلسطين، ابتلعتهم داخل الحدود وهم يشعرون بإنارة الشوارع التي تلمع في أعينهم من تحت الغمامة المعقودة على أعينهم، ويتضرعون إلى الله، ويطلبون النجاة لتسرع بهم الشاحنة أكثر ليرتاحوا من هذه الوجبات، حتى لو كان هناك وجبات أخرى، فتغيير الوجوه رحمة، فربما تكون الوجبات القادمة أرحم وإن كانت أسوأ يستطيعوا _على الأقل_ التقاط أنفاسهم ما بين النزول واستئناف الوجبات من جديد.

سارت بهم العربة العسكرية شمالًا، ودارت بهم من شارع إلى شارع، ومن جادة إلى أخرى، في ظل خربطة الجغرافيا، وصلوا بعد ما يزيد عن الساعة مدينة (عسقلان) المحتلَّة، وابتلعهم الثعبان الأقرع، وكان لهم نصيب من سمومه، حتى نفثهم في المقبرة الفسيحة ليختار له شياطينها القبور اللائقة، ويبدأ بممارسة فعل منكر ونكير بل هما أرحم.

فمن يداوي هذا الجرح المعروض للفرجة؟! لا أحد، وسيترك حتى يخمص لوحده!

8

حِكْمَةُ حَكِيْمٍ، وَجَهَالَةُ جَاهِلٍ

يُروى أنَّ رجلًا خبيرًا في النصب والاحتيال، داهيةً في المكر والخداع، والفضل يعود إلى غباء القوم لا لذكائه، أجبر حماره أن يبتلع قطعًا ذهبية، ثم نزل به إلى السوق، فكان كلما نَهَقَ، تساقط من فمه بعض منها.

استغرب القوم ما رأوْا، وحارَهُم حال الحمار العجيب، فنظروا إليه نظرة الطامع الحاسد، ولإنهاء الخلاف، افتُتح المزاد العلني، وبدأ كل طامع

يزيد بالسعر ويرفع الثمن، حتى حازه أحدهم، بأضعاف ثمنه، وبأضعاف ثمن قطيع بأكمله، وبأضعاف الذهب الذي حشاه المحتال في فمه.

عاد الفائز بالحمار العجيب إلى أهل بيته، يُحدّثهم ما كان من أمر الحمار الذي لم يعد لا للنهيق ولا لزفر الذهب.

اجتمع القوم إلى بيت القاضي فساقهم كالقطيع إلى منزل المحتال، فكانت زوجته باستقبالهم، ولما عرفت خبيئة أنفسهم، رحّبت بهم، وأطلقت سراح كلب مأسور لديها منذ زمن، فانطلق إلى الجبال مبتهجًا بحريته.

بعد قليل من الانتظار، عاد الزوج يجرّ توأم كلب زوجته المتآمرة معه، فأخذت الصدمة مأخذها في نفوس القوم، طمعوا، وتحاسدوا، ونسوا سبب زيارتهم، وانشغلوا بأمر الكلب المدرّب، الذي لم يعهدوا على كلابهم أن تفعل فعله، فتعالت الصرخات، وعادوا للمزاد؛ لفضّ الخلاف، واشتروه بثمن باهظ كما الحمار وزيادة.

فرح الخبيث بفعلته، ورضى عن زوجته، وعاد الطمّاع، الغبي، بكلبه الذي لم يصل به باب بيته حتى انفلت منه هاربًا، فارًّا إلى الجبال، لاحقًا بأخيه فرحًا بحريته.

اجتمع القوم في قاعة محكمتهم، فرفض اللص الحضور، فذهبوا للبيت الذي سرق عقولهم قبل أن يسرق مالهم، فاستقبلتهم الزوجة الخبيرة بشأنهم، فأجلستهم في غرفة الأضياف لانتظار زوجها، ودخلت مخدعها لتضع شيئًا سائلًا تحت ردائها.

عاد الزوج، رحّب بالأضياف سائلًا زوجته: وهل قمت بواجب الضيافة؟!، فقالت: لا!، فصرخ عليها صرخات لؤم وخبث: «هؤلاء كبراؤنا، سادتنا، عليْة قومنا، وشيوخنا، بدونهم لا قيمة لنا، وفضلهم علينا وعلى المدينة وقراها كبير».

لم يَعُد المكان يتَّسع للقوم الذين انتفخت رؤوسهم حد الانفجار، وبدأوا يُداعبون لحالهم، ويعدّلون من غطاء رؤوسهم وتشققت شفاههم ابتسامة، وطارت قلوبهم فرحًا، وطربت آذانهم لهذا المديح، وتمنوا ألا ينقطع بحال.

وما زال المحتال يؤنّب زوجته ويزجرها وينهاها، ويغدق عليهم المدائح، ووسط المعمعة، والغضب المصنوع، استل خنجرًا عن يمينه، نصله يدخل في غمده، فطعن زوجته طعنة نجلاء، اخترقت الكيس المليء بالسائل الأحمر المخفي تحت ردائها، فسلبتها نفسها في لحظة واحدة، وانهمرت الدماء، وتناثر بعض منها على الأضياف، فأوجسوا منه خِيفة، وقالوا: «لقد جئت شيئًا نُكرا»، وهمُّوا به وهمَّ بهم لولا أن رأوْا مزمارًا بيده، ينفث فيه خداعة، فتمايل القوم على أنغامه كما الأفاعي، فانتصبت الزوجة واقفة، ووسط ذهول القوم، دخلت الزوجة مخدعها، منتزعة كيس الدم، مستبدلة ملابسها وعادت لحالها.

نسي القوم سبب قدومهم، وأخذوا يتجادلون، ويتناجون في أمر المزمار، الذي يُحيي الموتى، فوقع الاختيار على أحدهم؛ ليدفع مقابله ألف ألف قطعة ذهبية، وقطيعًا من الغنم زيادة، وما سُمي الذهب ذهبًا إلا لأنه

يذهب بعقول الناس، ومن كرم اللص المحترف، وعلمهم بسرائر نفوس القوم، أهدى لكل واحدًا منهما مزمارًا، ما فعلت بنفوسهم.

عاد القوم إلى بيوتهم ليجرّبوا ويختبروا المزامير على زوجاتهم، فاستيقظت المدينة على كومة من الجُثث، وأصبح المكان يفتقر إلى النساء، وخسر المجتمع أهم أعمدته.

اجتمعت المدينة عن بكرة أبيها على المحتال لما علموا من أمره، وسالف عهده فأحكموا وثاقه، وأدخلوه في كيس كبير، وشدّوا عليه شريطًا، وحملوه على الأكتاف وساروا به طريق البحر، فلما أنهكوا وتعبوا، استظلوا تحت ظل شجرة، فداعبت جلودهم نسائم الربيع، فأخذتهم سِنَة من النوم، مرّ خلالها راعٍ، حاره أمر الكيس المتحرك ففتحته خلسةً، وإذ به ذاك المحتال، فقال الراعي: ما شأنك؟! قال: هؤلاء قومي يريدون إجباري على الزواج من ابنة الملك، لجمالها وغناها وحسبها ونسبها، ولكني ولهان ومُتيم بابنة عمي، وأرغب بالزواج منها، ولن أتزوج غيرها.

جاءت الفرصة الذهبية إلى الراعي الطامع، فقال: أنا أتزوجها، فقال المحتال وهو يفتح رأس الكيس: إذًا ليس لك إلا أن تدخل هنا، قبل أن يشعروا بنا، فدخل الراعي مسرعًا، وهو في قمة النشوة والسعادة فزمّ الخبيث الكيس، وأحكم القيد على عنقه، وترك الراعي لمصيره.

نظر الخبيث إلى قطيع غنم الراعي، فساقه أمامه، وعاد إلى زوجته يبشرها بآخر حِيَله، فأعجبت بدهائه وكافأته بطعام شهي، وليلة حميميّة، وحمام ساخن، أنساه تعب يومه.

صباحًا قاد اللص القطيع إلى السوق، ليبيع منه ما شاء، فرآه أهل المدينة، فتحلّقوا حوله، وحملقوا أعينهم، ولم يصدّقوا، وكذّبوا ما رأوْا، أأنت أنت؟!! نعم أنا، وما الغرابة؟ ما بكم وكأن على رؤوسكم الطير، لقد ألقينا بك في قعر البحر، وتأكدنا من موتك، والمدينة وقراها تشهد.

لكنكم لم تعودوا بجثتي، عندما وصلت إلى القعر، فُتح الكيس وأزيلت الأثقال، وحُلّ الوثاق، وخرجت وإذ بحورية بحرٍ صغيرة جميلة، تنفست من ثغرها وداعبت شعرها حتى ذهبتم وعُدتم أدراجكم، فأخرجتني إلى الشاطئ، وأعطتني كنزًا متواضعًا، اشتريت به هذا القطيع، والأهم أنها أخبرتني عندما ينفذ مالي، أن أحضر إلى أختها الكبرى، الأكثر ثراء وجمالًا، فسألتُها: وأين أجدها؟ قالت: في الأعماق بعد الميل العشرين، حيث الأمواج العاتية.

لم يكمل المحتال كذبته، وقبل أن يطلب منهم شيئًا، تسارع كبار القوم إلى مراكب الفقراء ليعتلوها، فأبحروا، وتسلّق معهم من تسلق، فأثقلت القوارب، وضاقت بمن على متنها، وما إن أبحرت، وبدأت الأمواج تتلاطم بها، وهي تعلو وتهبط حتى بدأ الرعب يدّب في القلوب دبيب الآجال في الأعمار، حتى غرقت المراكب، وأصبحت مسكنًا ومأوى للأسماك، والجثث طعامًا للحيتان، ولم يرجع إلى الشاطئ غير قِطع من الخشب، الذي لم يرسُ في القاع، فماتوا جميعًا بطمعهم وغبائهم، فلم يتعلموا لا من أخطاء غيرهم، ولا من أخطاء أنفسهم، فماتت عقولهم وقلوبهم قبل أن تموت أرواحهم وجثثهم، وأصبح اللص المحتال المغتصب سيدًا على المدينة، يأمر وينهى، ويحكم ويرسم.

كان هذا المحتال، المحتل، اللص، يمثل الكيان الصهيوني الذي احتل فلسطين سنة 1948م وكانت زوجته الولايات المتحدة الأمريكية، التي أبادت الهنود الحمر، واحتلت أرضهم، فالاثنان كان احتلالهم إحلاليًا، وما زالت تساعد الكيان علنًا في كل مساعيه، وخبثه، وحيله، بعد أن استلموا الراية من الدجاجة بريطانيا التي باضت هذا الكيان وما زالت ترعاه في الخفاء؛ لأنه غير شرعي.

وكان أهل المدينة قادة العرب، وحكامهم، ورؤساءهم، وملوكهم، والمتسلقين المنتفعين وأبواقهم، الذين أصبحوا جميعًا جُثًا متحركة، عبيدًا عند سيدهم اللص وزوجته.

إن اللص يسرق مالك، لكن الكذاب المحتال يسرق عقلك، بل وعقل أحفادك، لقد سرقوا واغتصبوا وسلبوا أرضي ومالي وممتلكات أبي وعائلتي وشعبي؛ لأنهم يملكون القوة، وإن كانت في حينها بسيطة إلا أننا لا نملك أمامها شيئًا غير الإرادة، والمؤلم والموجع ومصيبة المصائب أن هذا كان بتخاذل العرب ومساعدتهم وتراجعهم وبغبائهم.

لكن لم ولن يستطيعوا سرقة عقلي أو تشويه فكري، لذلك مثل الكثيرين ما زلت وأنتم مثلي نطالب بحقّنا الذي لم ولن يسقط بالتقادم.

هاجرنا من قريتنا إبان النكبة سنة 1948م، عندما حاصَرنا العدو السارق، وأعدم الكبير، وداس الصغير، واغتصب البكر، وبقر بطون الحوامل، وحرق البيوت، ودمر المساجد، فأهلك الحرث والنسل، وعاث في الأرض فسادًا، وجعل ما عليها صعيدًا جُرزًا.

هاجرت القرى والمدن الأخرى إبّان حرب سنة 1967م، التي أسموها «النكسة»، ليخفِّفوا من وطأة العار الذي لحق بهم في تلك الحرب التي استمرت ستة أيام، فهاجر الشعب، وأسموه نازحًا، ليخففوا من ذلّهم، ومن الناس من كانت هذه هجرته الثانية، عندما طرده العدو من أرضه، التي هاجر إليها أول مرة، كغزة والقدس، والضفة الغربية، وسيناء، والجولان، فهاجر الشعب هجرتين، ليس له وطاء غير أديم التراب، ولا غطاء غير قطع السحاب.

تفتخر الجيوش العربية بحروبها ضد الاحتلال على أرض فلسطين، وفي عيد الجيش من كل عام يفتخرون بالمجد المصنوع، ويتباهون بفخر موضوع، فيعدّدون، ويسردون، حتى حروبهم بين أنفسهم، وكأننا لسنا أبناء البلد ونعرف الحقيقة المرة التي حدثت حينها، ونعرف موضع قدم كل جيش وكل جندي وكل كلمة تلفظ بها إلى الآن، ومازالت الآثار شاهده حتى اليوم، والنتيجة أن فلسطين، الأرض الإسلامية العربية محتلة من قبل وضيع، ذليل، أصبح سيدًا.

خرجت من البلد طفلًا، وشهدت النكسة شابًا، والتحقت بالفدائيين الثوار في الأردن، الضفة الشرقية للنهر، كنّا نعبر الحدود، ونجتاز حقول الألغام، وننفذ العمليات العسكرية ضد الاحتلال، ونلتقي بالمحاربين الفلسطينيين القادمين من سوريا ولبنان، وقد أُصبْت، واعتقلت مرات ومرات، وكان نصيبي أن أكون في لبنان سنة 1982 م، عندما خضنا أشرس الحروب مع الاحتلال، ثم كان نصيبنا ضمن الاتفاق المُبرم أن نخرج إلى تونس بحرًا، ثم رجعْت إلى الوطن مع السلطة الفلسطينية سنة 1994م، وقد اشتعل الرأس شيبًا، بموجب اتفاق

أوسلو اللعين، وما زال في العمر بقية، والحكاية تطول بطول أعمارنا.

أمران يجعلان الإنسان أكثر حكمة، الكتب التي يقرؤها، والأشخاص الذين يلتقي بهم، وقد التقى (الشيخ) الكثير من الأشخاص في العديد من البلدان، والكثير من المناسبات، ومن كل الأعمار، فأصبحت لديه الخبرة، بأن يعرف الشخص الذي يلتقي به من أول نظرة.

التقى (الشيخ) لأول مرة بـ (يوسف) في أقبية التحقيق، في زنازين عسقلان، لأجزاء قليلة من النهار، وبعضٍ من الليل، في هذه السويعات خَبِر من أمر (يوسف) ما خبر، رآه شابًا وسيمًا لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، صحته أكثر من كلامه، شارد الذهن.

دخل صائمًا، يُصلي، له ورد من القرآن والتسابيح، فقلّما تجد هذه الصفات بين أترابه وأبناء جيله والأغرب أنه يقوم بآداب النوم كاملة، يتوضأ بغسل أطرافه، يجلس على فراشه مستقبلًا القبلة، رافعًا كفيه بموازاة صدره، ينفث فيهما ثلاثًا، ثم يقرأ الإخلاص والفلق والناس، ثم يمسح ما استطاع من جسده، ويكرر ذلك ثلاثًا، ثم ينام على شقه الأيمن وكفّه تحت رأسه.

كان الشيخ يراقب (يوسف) لما وجد فيه من حسن الخُلق حتى سأله بابتسامة: وماذا تقول في التسبيح؟ فقال: سبحان الله، الحمد الله، لا إله إلا الله، الله أكبر، أستغفر الله العظيم وأتوب إليه، لا حول ولا قوة إلا بالله، حسبي الله ونعم الوكيل، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وصحبه، كل تسبيحة مائة مرة، لتصبح ألفًا في الصباح، ومثلها في المساء، وأضيف إليها وسط النهار، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

أُعجب الشيخ بـ (يوسف) وازداد احترامه وتقديره له رغم أنه من جيل أحفاده، وفكّر أن يعطيه مما لديه، ليعيش زمانه وزمانه، ويخبره عن فوائد ما يقوم به من الناحية العلمية والصحية، ويلفت انتباهه إلى أهمية الطاقة في جسم الإنسان، ومركزها، وفوائد الصلاة؛ لأن (يوسف) بالتأكيد وحتمًا يعلم الأهمية التعبدية لما يقوم به، ويعلم الثواب والعقاب، فأراد الشيخ أن يضيف له شيئًا جديدًا، ويعلمه أهم شيء في العبادات وهو الخشوع والانخطاف، يريد له أن يكون واعيًا مدركًا لكل ما يدور من حوله، خاصة الأشياء الرتيبة.

ثم أضاف (الشيخ): ومن علّمك هذا قال (يوسف): هذا بعض فضائل والدي عليّ، فقد كان يرسلني منذ طفولتي إلى المسجد، وأمكث الليالي الطوال مع جماعة التبليغ والدعوة الذين لهم الفضل الأكبر، فقد تربيت روحيًا وأخلاقيًا على أيديهم، وعلموني الخطابة، كما تربيت وطنيًا في بيتي أولًا، ثم مارست ما تعلمت في صفوف المقاومة، أما المدرسة وبالرغم من تفوقي إلا أنها لم تعلمني غير القراءة والكتابة والقليل من المعلومات العامة.

أدرك (الشيخ) مدى رجاحة عقل (يوسف) وذكائه، حتى تنبأ بمستقبله ونجاحه، وانتبه (الشيخ) كذلك إلى براعته في الإصغاء وفهمه لكلامه ومقصُوده وما بين السطور رغم لغته الفصيحة التي يكثر من الحديث بها حتى مع العامة، خاصة في المواعظ والدروس التي يُقدّمها، والتي كان (يوسف) شاهدًا عليها هذه الساعة، ويعي (الشيخ) أن مَن صَمَتَ نَجا، وأفلح الساكت الصموت، وتمنى لـ (يوسف) النجاة والفلاح.

الشيخ (أبو جابر) أشعث أغبر، كأنه من العصر الحجري، يسير الهُوينى، يحمله خياله وأحلامه أكثر مما تحمله أقدامه، لا يتحدث إلا لفائدة، ويسهب بذلك، ويأتي بالقصص الممتعة، ويستخلص منها الحكمة.

يقول الحكاية كعادة الختيار الذي يتحدث عن ماضيه، الذي يرى فيه نفسه أكثر مما يتحدث عن واقعه الذي لا يرى فيه إلا موته، يكثر من الصيام والقيام والدعاء، فلم يبقَ في العمر إلا أقلّه، محارب قديم، فدائي، خبر الحياة وشؤونها، كما خبر عدوه وأكاذيبه، صامت، مع خالقه إن لم يجد من يُحدثه، لا ينسجم مع الأحاديث الجوفاء، كالأطلال الصامتة، لكنها تُحدِّثك عن تاريخ قديم، عندما تقول الكثير عن زمانها، فهي خرساء ناطقة، تاريخ لوحده. ترى ذلك في تجاعيد وجهه (كالأم الفلسطينية ترى خريطة فلسطين مرسومة في تجاعيد وجهها) وشيب رأسه، وتآكل أسنانه، وانحناءة ظهره.

اعتقله الاحتلال من (وادي القلط) وله معه حكاية وتاريخ، ولا يضيّع فرصة إلا ويتحدث عن هذا الوادي، وينتظر فرصة أخرى، ليتحدث عن تاريخه، ألقوا به في قبور (المسكوبية) أيامًا عديدة ثم حوّلوه إلى قبور (عسقلان) أيامًا مديدة.

بدأ (الشيخ) موعظته بتلك القصة، فبالمثال يتضح المقال، وخير الكلام ما قل ودل _وإن كان أسهب_ تحدث بحرقة وألم ومرارة، وإيجاز مقارنة بما يملك من تاريخ، وكعادته ختم بمقولة: «وللحديث بقية»، ففي المسجد تبدأ بالقصة، لكن السجان لا يسمح لك بإتمامها، فتختصر وتودع، وتقول: للحديث بقية، لتكمل الحكاية أو الدرس بعد عام، أو عامين، أو عشرة، دون عبرة للزمن الذي مر، أو للعمر الذي انقضى.

9

أَلْقَوهُ فِي غَيَابَةِ الجُب

دخل (يوسف) قبره متحسسًا مصدر الصوت، فقد كان (الشيخ) يتحدث بتلك القصة إلى رفاق زنزانته، في جوّ أقرب للظلام منه إلى النور، رحبّوا به، وواصل (الشيخ) حديثه، وجلس (يوسف) يستمع وهو شارد الذهن إلا أن القصة أمتعته وجذبته، فأحسن الاستماع حتى انتهى (الشيخ).

قام (يوسف) لنومه، بعد أن مارس عبادته، وقد لاحظ نظرات (الشيخ) التي لم تُفارقه مذ دخل الزنزانة، فراعه أمره، وظن به الظُنون،

فربما يكون جاسوسًا من خفافيش الليل، فهذا المكان أوكارهم، ومن الصعب هنا أن يميز بين الصالح والطالح، بين مَن معك، ومن عليك، وتبقى في معمعة مع نفسك.

كان النوم شحيحًا تلك الليلة، و(يوسف) يضرب أخماسًا بأسداس، ساعة يثور ويغضب، وساعة يغفو ويهدأ، يفكّر بحاله، وبمن حوله، لكن أجواء القبر المكتظ بالنزلاء لم تسمح له أن يخلو بنفسه، فمر الليل على مهل كأنه سلحفاة تصعد جبلًا شديد الانحدار.

وخزه (الشيخ)، لصلاة الفجر ظنًا منه أنه غطّ في النوم من شدة التعب، فنهض ثم توضّأ، وصلَّى، وجلس مع نفسه يدعو، ويستغفر، وما هو إلا وقت قصير حتى استقبل (الشيخ) من فتحة تتوسط الباب _يسمونها (أشناف)_ شيئًا من طعام وشراب.

تبادلا أطراف الحديث، فاستيقظ الآخرون، والتفوا حول مائدتهم، فوزّع (الشيخ) على كل واحد منهم كسرة خبز وشريحة جبن وكأس شاي، وكل صنف لا يَمُت لاسمه بصفة، ولا يشبهه بحال إلا بالأسماء.

وجد (الشيخ) فرصة ليتحدث إلى (يوسف) على وجه السرعة بعدما عرف أنه ألقي القبض عليه بالأمس، فأدرك بخبرته أن (يوسف) هنا بالخطأ، أو قصدًا، ليشعر بالوحدة والاكتئاب والضغط النفسي عند عزله، فحذَره من بعض أساليب وحيل ومكر الجواسيس الذين يبحثون عن أي معلومة، بين جدران الزنازين، والذين يطلق عليهم اسم (العصافير)، ففي العالم أجمع الطيور هي رسل الله، إلا هنا ظلموها وحوّلوها إلى رسل الشياطين، هنا للجدران آذان!

من خلف الباب تتسرب أصوات قدمي مارق محتال دسّ المفتاح الثقيل أنفه الغليظ في الباب، ودار دورته، وفتح على جثث ملقاة على الأرض، وصرخ بأعلى صوته: (يوسف)؟

- آه، نعم!

- تعال، اطلع برّه.

خرج (يوسف) إلى الزقاق، أسند ظهره إلى الجدار الخشن، ودار المفتاح الذي يشبه مفاتيح العودة الغليظة عند الفلسطينيين دورته العكسية، فأغلق الباب، وعادت المفاتيح إلى مكانها على خاصرة السجان، الذي قيّد (يوسف) من يديه، ثم ركع تحت قدميه وأحكم وثاق رسغيه، ثم اعتدل، بيديه توّج رأسه بعصبة، كما يتوّج الملوك، لكنها تنزل من أعلى الرأس إلى عينيه، أشبه بنظارة البحر تمامًا، وهي عمياء، محشوّة بالإسفنج، محاطة بالجلد الأسود ليتمكن من اقتياد ذبيحته إلى المسلخ الذي يريد دون أن تعرف من أين دخلت، ولا من أين خرجت هذه السلاسل وهذه التاج، رغم الإذلال والمهانة، والتي يسعى هذا الخائن المخادع من خلالها أن يُشعر الأسير بالإحباط واليأس، ويمارس هذا السجان من خلالها هوايته ليُشبع غريزته المريضة، ونفسيته الذليلة، ليتلذّذ على آلام أعزل ليس له حول ولا قوة، وليعوّض النقص الذي يتملّك نفسه، ويعوّض الاضطهاد الذي لحق بمجتمعه، فيفرح فرح الجراء بحليب أمهاتها، وهو يقيد الأسير.

مارس هذا اللص هوايته على (يوسف)، ثم جذبه من يديه المثقلتين بالقيود، وسار به بضع خطوات، لم تتجاوز الدقيقة، ثم أسنده إلى الجدار في زقاق جديد، ومارس نفس الهواية، بطريقة عكسية، تناول مفاتيح عودة

الفلسطينيين من مكانها، واختار أنفًا من أنوفها، فزج به منتصف الباب فدار دورته العكسية، فصرّ الباب في يديه وهو يجذبه للخارج، فتركه مشرعًا.

دفع (يوسف) أمامه داخل قبر جديد، واستجمع السجان قواه، ليدفع الباب الحديدي الثقيل إلى مكانه، ويعيد المزلاج الذي يتوسط الباب لتعود الأقفال لتمارس دورها الذي صنعت من أجله.

تقدّم (يوسف) خطوة واحدة، وإذ بالمتلصص يسحب بقوة باب كوّة صغيرة، لا تتجاوز حجم كفّ اليد، مستقرة أعلى الباب، تعمل كما المزلاج، اختلس النظر بلمح البصر؛ ليتأكد من نفسه أنه أدخل (يوسف) بين الأربعة الجدران، فيلتفت (يوسف) إلى الصوت فيجد أنه عاد لإغلاق الكوّة بقوة، وانصرف.

ألقى (يوسف) بنفسه في أحضان قبره الذي تفوح منه رائحة الموت، ورطوبة العذابات، وصرخات الآلام، وظلمات الجب، هنا بدأت الخلوة، والأفكار المكتظة التي لا تصحو إلا عندما يريد أن ينام، في ظل الهدوء القاتل الذي كان السّمة الطافحة على القبر باستثناء قرقعة المفاتيح التي تفعل أفاعيلها في العقل والقلب، آآآه، لو يعرف الإنسان ما يخبئ له المستقبل، ومرور الساعات والأيام لاستطاع أن يتحكم بذهوله على الأقل، ونبضات قلبه، وبأحلامه.

في لحظات الصمت الرهيبة المرعبة كان يحدِّق في الأفق ليرى البعيد قبل وصوله، لكن أي أفق ذلك الذي تحمله القبور الضيقة المظلمة؟!

10

ظُلُمَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ

فغر الحوت الأزرق فاه الضخم ليمرِّر من بين أنيابه ليبتلع تحت جنح الظلام الدامس (حسن) و(مراد) وهو يتلذذ على آلامهما وعذاباتهما وآهاتهما، وليحكم قبضة أسنانه ويلوك جثتهما بين أضراسه العريضة، حتى إذا انهكا من الصراع والمصارعة، بصق بهما أمام السجان الذي لم يكن في قلبه رحمة، ولا رأفة، وأجسادهما مضرجة بالدماء، وأقدامهما لا تقوى على الانتصاب، يترنحان كما تترنح الأشجار وسط الرياح.

قشّرهما من كل شيء، ليظهر إليهما الشيطان بلباس الملائكة، يتحسس بعينيه مصدر السائل الأحمر ليقرر رغم الجراح الغائرة، والدماء النازفة، والألوان المزرقّة، والمصفّرة، والوجوه الشاحبة، والمعالم المتغيرة، والصرخات المدوية، وبقمة الحقد والعنجهية، لا حاجة للأدوية! لا يوجد كسور! والجراح ستبرأ لوحدها! ويوقّع أسفل أوراقه، وينادي إلى السجان، أدخِلْهم إلى أي قبر؛ ليغسلوا دماءهما، ممرض بلباس قاتل، سجّان بملابس طبيب، ضبع على هيئة إنسان.

أحضر السجان قيده، وغمامته، أدواته التي لا تفارقه، حتى لو كانت الحركة لا تتجاوز المتر الواحد، فهي مصدر فرحته وسعادته، عندما يراها على ضحيته، فقيَّد وغمغم، ودفع بهما أمامه، مختارًا لكل واحد منهما حفرة من حفائر الموت التي لا تزورها شمس، ولا يطل عليها قمر، ولا تمر عليها نظافة البشر غير الرطوبة، والروائح النفّاثة المنبعثة من مرحاضها، ومتاعها القليل العتيق عتق هذه القبور.

مكث كل واحد منهما وحيدًا، يحاول التعرف على قبره وحفرته، كطفل يتعلم المسير، وضرير يتحسس الطريق، يتعثر بهذه وتلك، وكلما تحرك صرخ صرخة مكتومة من آثار الجراح.

في زاوية القبر بالكاد رأى مقعدة مرحاض، تقدم إليها، واتكأ على جدارها القصير، فوجدها تسحب الماء سحبًا، وتشفطه شفطًا، بصوتها المزعج الذي يتجاوز خرير الماء، فتقدم متلمسًّا، جدرانها الخارجية، لعله يلتمس شيئًا غير النتوءات، فتعثّر بصندوق حديدي صغير أملس، كأنه مصفّح، يتوسطه قطعة حديدية صغيرة، مثقوب أوسطها ليخرج الماء منها كأنها رضّاعة الأرنب في قفصه.

تحسّس تحت قدميه فرشة رقيقة مهترئة، وغطاء باليًا، بلونه المقزع، جلس متربعًا متألمًا، يحدق فيما حوله، حتى سقط رأسه على صدره، ثم بدأ يميل حتى كاد أن يهوي أرضًا على وجهة، فعاد مخالفًا هوى جسده، مُلصقًا ظهره بالأرض، شاخصًا بصره إلى سماء قبره، والنعاس يداعب أجفانه، ينظر إلى نور خافت يقترب من الأصفر أو البرتقالي، بجواره فتحتان دائريتان، مغطاتين بقطع حديدية، مثبّتان في السقف، تحتوي على عشرات الثقوب المتلاصقة، واحدة للزفير والأخرى للشهيق، لكنه لا يشعر إلا بزفير صقيعهما.

جذب الغطاء على نفسه ليتقي البرد المنبعث من السقف، لكنه لم يحتمل رائحة عفونته، فأعاده إلى منتصف جسده، لكن الرائحة مازالت تقتحم أنفه، فمال على شقِّه الأيمن منكمشًا على نفسه، واضعًا كفّيه بين فخذيه، جاذبًا ركبتيه إلى بطنه، ينظر إلى الجدار الذي لا يشبه جدران الزنازين الملساء التي نراها في الأفلام والمسلسلات، المكسوّة بالكتابات، والشعارات، والرسومات والجدران المرتفعة، التي يعلوها شُبّاك تتسلل عبر قضبانه وشِباَكه أشعة الشمس التي تكشف عن الغبار المتطاير في الهواء، يجلس أو يقف السجين وسط الشعاع، شاخصًا ببصره إلى السماء، رافعًا يديه طالبًا رحمة ربه أن تتنزّل عليه، يبحث عن الشباك أو أي دليل حياة، فلا يجد إلا الجدران.

هنا كل شيء اختير بعناية فائقة من قبل مختصين وخبراء، فالجدران خشنة، مليئة بالنتوءات، حتى لا تأخذ راحتك عند الاتكاء عليها، أو الاستناد إليها بلونها الرمادي الذي يدل على الملل والحزن والاكتئاب والوحدة والعزلة ليلتصق هذا الشعور بالسجين طوال أهم مرحلة في

مدفنة مرحلة التحقيق وليتسنى للمحقق المحتال أن يسيطر على عقل ضحيته، ويأخذ منها ما يريد، ويحصل على مبتغاه، بأسرع وقت ممكن، وبأقل جهد مبذول ليرتفع شأنه عند زملائه في غابتهم الموحشة.

قد أثبتت الدراسات والتجارب عند زوجتهم (الولايات المتحدة الأمريكية) أن هناك نقطة في عقل وذهن الإنسان إذا وصل إليها المحقق، فيستطيع أن يحصل من المتهم على اعتراف كامل، والأخطر من ذلك أنه بمقدوره أن يزرع الأفكار التي يريدها في رأس المتهم وأن يشكّله كيف يشاء ويكون كأداة طيّعة في يده، حتى إن المتهم يقبل العمل كجاسوس لديه دون تردد أو معمعة، هذه النقطة لا يستطيع المحقق المحتال أن يصل إليها إلا بوضع المتهم في ظروف سيّئة من العزلة والحرمان والضغط النفسي والتعذيب واليأس والإحباط، مقعدة المرحاض مقابل كوّة الباب مباشرة، ليشعر المحتال الضحية أنها تحت المراقبة الدائمة، من لحظتها الأولى إلى نهاية حياتها، ولينال من كرامتها، وعزتها، وكبريائها، بكسر حاجز الحياء فيها، فإن كسر هذا، فستهون وستنكسر كثير من الحواجز الأخرى، قطعة إسمنتية لا تتجاوز الشبرين أو الثلاثة، مثبّته في أحد الجدران، معلقة بلا أرجل، بحجم صحنين متجاورين، تمثل منصة الطعام، حتى تؤثر على فكر الأسير، وتجعله يضيق بضيقها، فلا تعرف سببًا لوجودها، كما توجد أختها في نفس الجدار، أسفل منها لتمثل مقعدًا تابعًا للطاولة.

كوّة أعلى الباب، ليبقى المعتقل محدّقًا بها، منتظرًا خبرها رغم أنها مصدر الإزعاج الدائم بالنسبة له، لكثرة سحب وإعادة مزلاجها، تحافظ على التوتر الدائم والخفقان المستمر، إضافة للمراقبة التي لا تنقطع.

11

خَبِيرٌ عَالِمٌ، وَحَلِيْمٌ حَائِرٌ

العزلة مملكة الأفكار، (يوسف) وحيدًا في الظلمات، يفكر بحاله تارة، وبصديقه (أحمد) في بلاد الحجاز تارة.

ماذا يعرفون عني؟ هل وصل صديقي الحرم؟ كيف عرف هؤلاء عن نشاطي؟ الآن ربما (أحمد) يدعو الله عند رؤيته الكعبة، اللهم زد هذا البيت تعظيمًا وتشريفًا؟ في أي زنزانة أنا؟ من أي باب دخلتُ هنا؟

هل استطاع (أحمد) أن يدخل من باب السلام؟ أم أن الاكتظاظ والمعمعة منعته من ذلك؟ هل يعرف المحقق تفاصيل عملي مع المقاومة؟ استيقظت الأفكار عندما أراد أن ينام، إما أن تستسلم له أو يستسلم لها، فانتصب يمشي فوق فرشته، خطوات معدودة للأمام، ثم يدور مكانه ومثلها مرة أخرى، والأفكار تدور أسرع مما يدور جسده كما تدور النيترونات حول نواة الذرة، لا يستطيع الإمساك بها، أو السيطرة عليها، ولا التحكم بها أو العثور على طرف خيط وسطها، لا نقطة ارتكاز يرتكز عليها.

وسط المعمعة، صراع أفكار، اختلاط أحداث، تَشابُك المواقف، هل (أحمد) وصل خط البداية؟ دخل صحن الكعبة؟ هل وقف متجهًا إلى الحجر الأسود؟ هل رأى الضوء الأخضر ليبدأ من عنده الطواف؟ هل قال: بسم الله، الله أكبر، ثلاثًا؟ هل انطلق أم ما زال مندهشًا متسمرًا مكانه؟، خاشعًا، باكيًا، داعيًا، سائلًا مولاه الرحمة بحالي؟!

لا تعرف أفكاره أتهتم بحالها؟! أم تحلق وتطير مع حال صديقه، فهناك المتعة، وهنا النقمة، الأهم الآن أن تهتم بنفسها، لكن هذه طبيعة الأفكار، ليس لها ميناء ترسو عليه ولا مطار تحط فوقه، ولا قاعدة تتحصّن فيها، كل ما يطير يقع إلا الأفكار، فمتى سأخرج من هنا؟! ومتى سأعود إلى أهلي؟! هل سيُكتب لي أن أسافر من جديد؟!، الأهم من هذا كله، ماذا يعرفون؟ وكيف السبيل إلى الخلاص؟! متى سأخرج للسؤال؟! لقد قال لي ذاك اللعين غدًا؟! متى سيأتي الغد؟! لقد أتى وانتهى؟!، (الشيخ) قد مرّت عليه الأسابيع؛ لأنه لن يعترف، ولن يتلو عليهم من لدنه ذكرًا، ولن يستسلم ولن تنطلي عليه خدع الذئاب، وحيلها، وأصنافها، وألوانها،

وأشكالها المتعددة، النتيجة، وحسب القانون، سيمكث ثلاثة شهور، تسعين يومًا بالتمام والكمال، قابلة للتحايل على القانون وتمديدها لاستكمال جمع كافة المعلومات والأدلة، باعتقال كل من له صلة به، خاصة من جيل الشباب الذين يجهلون هذا الواقع، وليس لهم تجارب سابقة ليسقطوا داخل هذا المستنقع الآسن لتلتقطهم الفخاخ النتنة، ولتنطلي عليهم الحِيل، ويصدقوا المكر والخداع، وليعترفوا على (الشيخ) لتتم إدانته باعترافهم عليه، حسب قانون (تامير) اللعين.

لكن لن يتركوا (الشيخ) في قبورهم يسرح ويمرح ويرتع، ويقص حكاياته وتاريخه على النزلاء دون حسيب أو رقيب، بل سيجلبون له تصريحًا من المحكمة، يسمح لهم باستخدام العنف معه (التحقيق العسكري) بحجة أن لديه معلومات مهمّة، ستنقذ أرواح الأبرياء وتلغي مفعول عمل القنبلة الموقوتة التي يخفي شيفرتها، والتي ستنفجر في أي لحظة، وسيعذبونه عذابًا نكرًا.

لا يفكر (الشيخ) القديم، صاحب التجارب، كما يفكّر المستجد، فـ(الشيخ) يعلم مسار التحقيق معه، خطوة بخطوة؛ لذلك لا يكترث كثيرًا للمستقبل، ولا ينشغل بزنزانته، فهو يعرفها أكثر مما يعرف أي شخص آخر، وعلى علاقة قديمة وصداقة طويلة منذ أن كانت عامود خيمة ثم أسلاكًا شائكة ثم جدارًا في العراء ثم أربعة جدران، ثم أصبحت على هيئتها الحالية، وما زال القاسم المشترك آلام التعذيب والوحدة والعزلة، وأقسامها، كان في الثلاجة عاريًا.

يركّز (الشيخ) على استغلال هذه الخلوة مع ربه بالدعاء، التسبيح، الصلوات، الخشوع، الانخطاف، مواعظ للنزلاء، يخفّف عنهم، يشّد من عزمهم، يؤازر، يواسي، فعادة من انتهي التحقيق معهم، وسقطوا في المصيدة، ما زالوا يندبون حظّهم، ونفوسهم محطمّة، ينتظرون الخروج من القبور الضيقة، والحفائر المعتمة، إلى المدافن والجبّانات الأكثر اتساعًا ليقابلوا المحامين، ويزوروا الأهلين، لتبدأ حياتهم الثانية.

(حسن) مشغول بجراحه أكثر مما هو مشغول بأمر حفرته، مشغول في ماضيه، أكثر من مستقبله، يفكر بزوجته وأبنائه، بأخته التي هاتفها، وأخبرها بقدومه، وما زالت تنتظر، وأبناء أخته الذين ينتظرون هدايا خالهم، وما زال لديهم الأمل، فربما تأخر بسبب الحاجز المغلق الذي هو حديث الساعة في قطاع غزة، يعرفه الرضيع قبل الكبير، وربما لزحمة السير أيضًا بسبب هذا الحاجز، وربما عاد إلى البيت، ويستغل وقتًا آخر، تكون الطريق فيه سالكة نهاية الأسبوع، بسبب إجازات الجامعات والتجار.

هي تفكر بأخيها وتخترع الأعذار ليبقى الأمل، وهو يحزن لحالها، ويحدث نفسه، فربما اتصلت بأمي، أو زوجتي، ربما الآن كل واحد منهما يظن أنني عند الآخر، أو في الطريق إليه، ولم يفكر أحدهم بخيار ثالث، هل رآني أحد دون أن أراه؟ هل أبلغ السائق أهلي؟ فهو لا يعرفني؟ كيف سيبلّغ؟ ربما أبلغ جهاز الأمن الوطني الفلسطيني عن مواصفاتي؟ ربما، يوشك رأسه على الانفجار، فلا جواب، والحيرة سيدّة الموقف.

(مراد) يعرف سبب اعتقاله، ألقي القبض عليه متلبسًا، أو كما

يقولون بالجرم المشهود، وسيُحاكم الجلاد الضحية على فعلها، وستنقلب الموازين لتُتهَّم الضحية أنها الجلاد.

خرج من بيته على أنه لن يعود، لم يخطر بباله أن نهايته السجن، وأن ما زال في عمره بقية، وأن ورقته لم تسقط بعد، كان يتمنى الموت شهيدًا في سبيل ربّه، ثم وطنه، من أجل هذا خرج، أما السجن فلم يكن في حساباته، ولا ضمن التوقعات، فلم يسمع عنه ولا عن أساليبه، ولا كيف سيواجهها، لكن كل شيء دون الموت يهون، هكذا كان يظن، وما زال، أكثر، أكبر، أقصى، أسوأ ما سيفعلونه، سيقومون بقتلي هنا، وهذا هدف خروجي، لكن سرعان ما يكتشف سوء تقديره، فالموت مرة واحدة أسهل، وأحن، وأحب إليه من الموت الذي سيتعرف عليه في كل يوم، وكل ليلة، وكل ساعة، وكل دقيقة، وكل لحظة، وسيشتاق للموت الذي ضاعت فرصته من بين يديه، ولن يجد إلا هذا الموت الجديد الحديث المتكرر دون أن يسلب الروح من جسدها.

لا يعلم أن التفكير بهذه الطريقة يزيد الطين بلّة، ولن يجدي نفعًا؛ لأنه لا يعلم العواقب، ولا كم موتًا سيموت، ولا كم سنة ستتبخر من عمره في غيابة الجب.

لا يعرف أن عليه التفكير بطريقة مختلفة، ينتصر بها على الذئب المحتال، ولينجو من مكره، ولؤمه، وخبثه، وليزيل الحبال الملتفة حول رقبته، فالأمر أعقد مما يتخيل، وليس بهذه السهولة والسلاسة والبساطة التي يظن.

رغم أنه ألقي القبض عليه بالدليل القاطع إلا أن الماكر يريد الاعتراف. فالذي كان ذاهبًا إلى الموت، بإمكانه أن يعترف على نفسه

ظنًا منه أنه سيُريح نفسه من عناء التحقيق، وسينقذ أصدقاءه من عناء الملاحقة والمطاردة، وسيحافظ على أسرار المقاومة واستمراريتها؛ لأنه مُدان على جميع الأحوال، لكن الحقيقة حتى لو كان هناك دليل، فتحقيق المخابرات (الشاباك) يمكنك التزام الصمت، وعدم التوقيع على أي ورقة، وتتحمل العذاب، وبعد الانتهاء، الحل عند المحامين، لكن تحقيق الشرطة يمكن إدانتك بالدليل والبرهان، حتى لو لم تتفوه بكلمة واحدة، لذلك يجب أن تتحدث وتدلّل وتبرهن لتقنع الشرطة، أما (الشاباك) فالصمت كفيل النجاة، وتحمل القليل أو الكثير من المعاناة.

الاعتراف سيّد الأدلة، هذا ما يريده جهاز الأمن العام (الشاباك)، والأهم عنده من ذلك ماهية الاعتراف، المعلومات، التفاصيل، الصغائر، موقع المنزل، الجيران، الشوارع، المعارف، الأصدقاء، الزملاء، الأقارب، علاقة كل واحد بالآخر، المشاكل، الخلافات الزوجية، الأزمات المالية، الحب، العشق، الإدمان، نقاط ضعف يبحث عنها المحتال ليسقط من يستطيع منهم مستقبلًا في شباك الخيانة والعمالة، ثم يبحث عن الأشخاص الذين عملت معهم، من جندَّك؟ أرسلك؟ خطّط لك؟ مسئولك؟ مسئول المنطقة؟ ساعدك؟ يحمل أفكارك؟ رفقاء دربك وسلاحك؟ من أين المال والسلاح؟، أعد الليالي ليلة بعد ليلة وقد عشت دهرًا لا أعد الليالي يمر يوم، فيوم، ثم يوم آخر، رتابة قاتلة، روتين مدمر، ملل، ألم، لا تطورات، لا جديد يُذكر، لا تحقيق، تفكير، وهواجس، بنفس العبارات، نفس الجمل، نفس الموضوع، وذات الأسئلة، ما أن تنتهي من آخرها، حتى تعود لأولها، ثم ازدحام وأزمة سير الكلمات، فما أن تصل نصف الفكرة، حتى تقطع

الطريق، وتعود للبدايات، ترسم الخيالات، السيناريوهات، آلام تزداد، أوجاع، صداع، خيوط تتشابك، لا تستطيع فرزها، ولا إمساك طرف منها، نفق مظلم، لا ترى النور آخره، لا مستجدات في كل يوم يمضي، غير الأرق، قلة النوم، قرقعة المفاتيح، جر القيود، خطا السجان الثقيلة، يخفق القلب لها، تزداد نبضاته، ترتفع الأنفاس، آلام السّرة مركز طاقة الجسد كلها داهمته مفاجأة، قرقعة، أو صراخ هنا أو هناك، هذا ينادي، ذاك يرد، صوت أذان قادم من بعيد، كأنها مئذنة مسجد المدينة، عندما يصل صوتها القرى البعيدة، لا تعرف الحقيقة من الخيال، من مع؟ من ضد؟ وسط هذه المعمعة، من يدلّني على الطريق؟

الباب يُفتح بسبب، ولغير سبب، عشرات المرات، طعام، شراب، ثلاث مرات يوميًا، ما عدا نهاية الأسبوع مرة أو مرتين، تستخلص، وتستصلح منه وجبة لا تتجاوز كسرة خبز، شريحة جبن، لعقة مربى، ثلاث حبات زيتون، نصف أو ربع خيارة، بيضة مهشّمة قلبها أزرق وظهرها بني اللون، شراب لا يتجاوز كأس شاي ثقيل بارد، حلو أو مر، بطعم البلاستيك المستمد من الكوب الذي صُبّ فيه، فبئس الشراب وساءت مرتفقا، هذا يسمى طعامًا، وذاك يسمى شرابًا، وكلٌ من اسمه براء، طعام يعلَق في جدار البلعوم رافضًا الهبوط للمعدة رفضَ حمارٍ محمّل بأكياس الإسمنت صعود تلة في شارع مرصوف، لا يصعد إلا بدفعه لأعلى، والطعام لا ينزل إلا بصبّ الماء فوقه ليزداد وزنه، فيساعده على الهبوط، مع قليل من الزقزقات، والتربيت على الظهر، إن وجدت من يربّت، فالأثقال ليست دائمًا مضرة، فأحيانًا تجلب المنافع.

تُلازمك عصافير بطنك، تنقر على جدار معدتك نقرًا دون كلل أو ملل، وتتمنى أن تطير قليلًا لتنام دقائق معدودات، لكنها تأبى إلا أن تلازمك، ليبدأ جسدك يأكل بعضه بعضًا، وشحمك بالاحتراق والذوبان، لتشعر بوزنك الذي يتناقص، يتهاوى يومًا بعد يوم، وتلاحظه بنفسك مع مرور الأيام حتى لا يبقى إلا هيكلًا عظميًا، يكسوه الجلد المجعد، المصْفَر، لو نظرت إليه لوليت منه فرارًا، ولملئت منه رعبًا.

تفتيش يومي، أسبوعي، ثلاث مرات، مع كل وجبة طعام، يوميًا، ويزيد العدد، ولا تزيد الوجبات بل تنقص، انتقال من قبر إلى قبر، من لحد إلى لحد، من باب إلى باب، من زقاق إلى زقاق، حمّام كل بضعة أيام، في أحد الأزقة الطويلة، ببابه المفتوح، ليمارس نفس الهدف من مقعده المرحاض القاطن قبالة كوّة الباب، ومائه الصدئ، وصابونه النتن، أو ليخرج ليلتقطوا له صورة شخصية، برقم على صدره، ليلغى من اليوم اسمك، لتصبح رقمًا بالنسبة لهم، كما مقابر الأرقام، لكن الفرق أن هنا قبور أحياء أموات، وهناك مدافن أموات أحياء.

ويمر يوم، ويمضي يوم، ثم يوم آخر، ذهاب، إياب، لكن دون المراد، دون المبتغى، وأنت تتقلب بفكرك، أكثر مما يتقلب جسدك، تدعو ربك أكثر مما تصلي وتخشع، فالخشوع يحتاج إلى تمرين، وتدريب، وهدوء، وطمأنينة، فالدين كله حسن علاقة مع الحق، وحسن علاقة مع الخلق، أما حسن العلاقة مع الحق، فلا تتحقق إلا بالصلاة، هذا الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال، ويحتاج إلى الخلوة، والتركيز كي تصل إلى النور، لتحصل على الأجر والثواب كاملًا، فنعم الثواب وحسنت مرتفقا.

أما حُسن العلاقة مع الخلق، فلا خلق هنا لتحسن العلاقة معهم، فهم مسخ، جثث ميتة، وإن كانت تتحرك، فالمحتال اللص هو ميت بغير ذكر الله، وأنت حي بذكر الله، فهذا الميت المتحرك، لا يجدي معه إلا سوء المعاملة والعلاقة لكي تنجو من مكره وخداعه وحيله وفخاخه التي ينصبها في كل مكان لكي يُسقطك في شباكه وشركه.

الجميع، الكل في وحدته، في ظلماته، في لحده، يفكر كيف سيركّز في موقف من الماضي يدخل عليه السرور، أو يركز ليخشع في صلاته، حتى لا يصاب بالجنون، لابدّ أن يصل إلى مرحلة الانخطاف ليرى النور الممتد من السماء إلى الأرض حتى يخرج من هذا الواقع، ويبذل جهده ليُسيطر على الشيطان، الوسواس الخنّاس، ليطرد وساوس (خنزب)، الذي يأتي ليفسد الصلاة بإلغاء خشوعها، وهذا أول ما يفقده الدين، وآخر ما يفقده يفقد الصلاة.

ليس كل من صلّى صلّى، وإنما تقبل الصلاة ممن تواضع لعظمة ربه، وكفّ شهواته عن المحارم، ولم يُصر على المعصية، ويطعم الجائع، ويكسو العريان، ويرحم المصاب، ويؤوي الغريب؛ ليصبح نور وجهه أضوأ عند الله من نور الشمس، وليجعل الله الجهالة له حلمًا، والظلمة له نورًا حتى يدعو الله فيلبيه، ويسأله فيعطيه، ويُقسم عليه فيبره؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[المؤمنون:1 - 2].

تحاول التركيز، لكن الأمر أكبر من ذلك يا عائشة، إنه يوم القارعة، كلٌ مشغول بنفسه، يبقى السؤال، بل الأسئلة تتلاطم في جدران جمجمتك،

تلاطم الأمواج العاتية بالقوارب المتآكلة، تبحث عن الجديد، عن بر الأمان، الذي لا يعرف طريق الوصول إليه أحد، متى سيعرف القضية؟ من سيخبره ما له وما عليه؟! من معه؟ ومن ضده؟ ما الذي أوصله إلى هنا؟

يواصل حديثه النفسي، أريد أن أكلّم أحدًا، على الأقل يدّلني على طريق الخشوع، يخفف من آلامي، ألا يوجد رفيق هنا؟! سأموت إذا لم أنطق، اختنقت من قلة الكلام وكثرة الصمت، هل أصبحت أخرسً؟! أريد أن أشكو، أن أُفرّغ ما بداخلي، أريد أن أصرخ فيصرخ علي السجان الذي لا يكاد يفقه قولًا، يتحدث مع الجدران تارة ومع الحشرات الزاحفة، وتارة أخرى مع الطائرة التي يتخيل وجودها ليُشعر نفسه أنه ما زال حيًا، ما زال عاقلًا لم يفقد صوابه.

يسير جميع من في هذه المدافن بالعشرات دون أن يعرف أحدهم الآخر، وإن عرف، فلا يعرف المكان، تسمع الأصوات، تمضي الأيام المملة دون تحديدها أو تحديد ساعاتها، وما إن تتمكن من ضبط بندول الوقت لديك حسب العدد، ووجبات الطعام، حتى تباغتك سِنَة من النوم، فلا تعرف أهي غفوة أم نوم عميق! فتعود خربطة الزمن، لتبدأ من جديد مراقبة العدد، ووجبات الطعام، وآثار النوم على وجوه الحاقدين لتضبط مرة أخر وتحدّد، وتقدر وقتك بأكثر دقة.

تُصلي خمس صلوات في اليوم والليلة كما فرضها الله، وتقدر الفارق الزمني تقديرًا، أو على صوت أذان لا تعرف لأي صلاة، أو ترفع الأذان أُحاد، وتصلّي فردًا، وتسير الأيام، كما سار بنو إسرائيل في التيه أربعين

سنة، حتى تغيّر الجيل الذي عصى ربه، وأنست مكانك، وكانوا جماعة في التيه، وهنا تفرقتم آحادًا، وقبل حظ الأربعين، تجتمعون، وتُساقون إلى حفركم زُمرًا، بعد انتهاء التحقيق.

ما بين الآحاد والزرافات، تجري الأحداث، وتُحاك القصص، ويسأل السائلون، ويجيب المجيبون، ويفرز أهل النار إلى النار، وأهل الجنة إلى الجنة، لكن هذه الحفر والمدافن من يدخلها لا يخرج إلا إلى جهنم التي تتفاوت في حرارتها، ولهيبها، وإحراقها، ثم يا أهل النار خلود بلا موت، ويا أهل الجنة، فلا يجد لها أهلًا، ولا يجد من يستحق الحرية في نظره، فيوفر المنادي على نفسه الصراخ؛ لينادي من جديد على من سيقتادهم إلى سؤال الشياطين التي تحولت إلى سيد يسيطر، ويحكم، ويأمر، ويزجر، الدنيا أصبحت تسير للخلف، بالعكس، بالمقلوب.

قبل السؤال مضى الأسبوع على البعض، والأسبوعان على البعض الآخر، والثلاثة على القليل منهم، في حالة الرقابة، والأحداث المكررة، في الأقبية المعدودة، وآذان الجدران المعهودة حتى يأتي الغد الذي قال عنه ذلك الشيطان الأكبر، الذي تختلف حساباته عن حساباتك، فالغد بالنسبة له ربما بعد أسبوع وربما بعد اثنين، حتمًا ليس اليوم التالي.

12

قَدْ أَفْلَحَ السَّاكِتُ الصَّمُوت

وتمضي الأيام، (يوسف) تتربع حوله الجدران، وتغلق دونه الأبواب، وتلازمه الأفكار، ويخترق ليله بكاء الانخطاف، والأيام تُعمل مبضعها في خطوط وجهه وجسده، لتشكّله كيف تشاء، وسكين الوقت يحز قلبه قبل عقله، وهو يسبح في أمواج الليل، وتعصف به رياح الذاكرة، منتظرًا ذاك الغد، أمال عنقه باتجاه الصوت، وكتم أنفاسه مترقبًا ما سيحدث، مُحدِّقًا إلى

الباب، اقترب خطو الخطوات، وقرقعة المفاتيح التي تستعد لفتح الأقفال، صوت المزلاج والسلاسل.

زجّ المفتاح الثقيل أنفه العريض داخل الباب، ودار دورته، واستجمع السجّان قواه ليجذب إليه الباب الثقيل الذي كشف عن (يوسف)، الرابض خلفه وسط قبره، صرخ بأعلى صوته وهو يحمل القيد مفتوحًا بيده. أنت (يوسف)؟!، نعم!، تعال.

انتفض (يوسف) كريشة وارتعش كورقة، منذ أيام وهو ينتظر هذه اللحظة، لكي يعرف مستقبله، لكن عندما جاءت الحقيقة وبانت، اختلف الحال، وازداد القلق، وفعل الأدرينالين فعله، وارتفع منسوبه، تقدم ببطء فوق الفرشة البالية، انتعل بابوجًا بلاستيكيًا يحز الأصابع حزًا، كما يحز القيّد رسغيه، جذبه السجان من كتفه مستعجلًا، وأسنده إلى الجدار، وأحكم القيد والغمامة، كعادته في إتقان عمله، ودفع الباب بقوة، وأحكم إغلاقه، خوفًا أن تتسرب نسمة هواء نقية من الخارج، وليحافظ على رطوبة ونتانة المكان.

بقسوة وعنف، جذب (يوسف) من حديد رُسغيه، وجرّه كشاة تمسمرت بالأرض، واستعصت على المسير، لتواجه السكين التي تبحث عن وريدها، لتنحره، وهو يتألم من جرّ السلاسل التي تحز رسغيه، ومازال يتعلم المسير بهما، فمشية الحر ليست كمشية الراسغ، تقدم بين الأزقة، والسجان يصرخ (دغج) فلا يفهم المقصود، فيضرب السجان قدمه بقدمه، ضربة خفيفة، يفهم منها أنه حمار عليه أن يرفع رجله، ليصعد ثلاث درجات، ويتقدم بضع خطوات، ثم (دغج) فيسقط (يوسف) أرضًا؛ لأنه

أخطأ التقدير، فهذا الدرج بعكس ذاك، فيعتدل واقفًا، ولا حاجة لأن ينزل مرة أخرى فالسقوط اختصر الطريق، والحاقد يبتسم على معاناته، وينتظره دون أن يقدم له مساعدة.

يتقدم إلى ممر آخر، ويسلّمه الحاقد إلى الأحقد، فيتقدم (يوسف) ككفيف لم يجد إلا طفلًا مشاغبًا شقيًا يرشده إلى الطريق، يوقفه، يجذبه من كتفه، ثم يضغط عليه بقوة، ويكرر كلمة عبرية لا يفهمها، ليجلسه على مقعدة كرسي، أو كرسي بلا ظهر فيتركه ويذهب.

يمكث (يوسف) في مكانه مرتعدة فرائصه، يبذل جهده ليتعرف على مكانه، فليس له إلا أن يُصيخ السمع، ليُحلل الأصوات من حوله، بعد أن رفع رأسه ليرى من تحت الغمامة، فلم ير إلا طرف درج، فمكث يستمع إلى أصوات السلاسل، وحديث الشياطين، وصفق الأبواب، وقرقعة المفاتيح، ويستخدم حاسة الشم، الرائحة نفاثة من حوله، رائحة الزهور، خمور، عطور، طعام، شراب، معطر غسيل، مستحضرات نسائية، بودرة جسم، اختلط الجميل بالقبيح، الروائح العطرة بالروائح الكريهة، الطيبة بالخبيثة، فأنجبت رائحة قلبت المزاج، وأضافت الصدر وأوغرته، فسال الأنف، وبصق الفم، فاختنق كأنما يصعّد في السماء، يحتك المارة بكتفه، وصوت السلاسل يخترق أذنه، وصفق الأبواب كل بضعة دقائق تقشعر الأبدان، وتخفق لها القلوب، ليدرك (يوسف) أنه أمام مكتب محقق، ينتظر دوره، يعرف أترابه من رائحتهم النتنة، المنبعثة من ملابسهم التي تشربت عفونة ورطوبة قبورهم، ثم برائحة عرقهم المتلبد على جلودهم تلبدّ السماء بالسحّاب، يعرفهم من آهاتهم، من أنينهم، ولغتهم، صرخات

جدال بيزنطي، تأتي من اتجاه الباب الخشبي القابع أمامه الذي مرّ عليه الساعة، وهو يصدر صريرًا، لم يبق في (يوسف) مفصل على مفصل، ولا سُلامة على سُلامة، يتمايل، يترنح، ينحني ظهره مع رأسه حتى يسقط بين فخذيه، ثم يعتدل فلا يجد ظهرًا يستند إليه، يحرّك مقعدته، ويهزّ بقدميه، لا يعرف الحل، فالآلام تغزو كل شعرة في جسده، كما غزا الاحتلال كل شبر من أرضه، والأفكار حلقت إلى السماوات السبع، ثم غاصت إلى الأرضين السبع، ولا يلوح في الأفق إلا الفراغ.

فجأة، وقف بجواره عابر سبيل، أسند كفّه الثقيل إلى كتف (يوسف) فاستبشر خيرًا، جاء الفرج، سيقف (يوسف) لتعتدل عظامه، ويجلس كل مفصل مكانه، ويتدفق الدم في عروقه، بعد أن كاد أن يتجلّط في شرايينه، وكاد أن يوقف نبضات قلبه، الأمر ليس بهذه السهولة، بكل استهتار وبساطة رفع صاحب الكف كفه، وغادر، وواصل طريقه، وبعد ثوان صفق الباب خلفه، تاركًا (يوسف) وقد تحطمت أحلامه وتبخرت في صراع نفسي وعذاب جسدي مع الآلام وتزاحم الأفكار.

كل شيء مدروس بعناية فائقة، ومخطّط له بدقة متناهية، ليصل بـ(يوسف) إلى مرحلة وحالة من الإحباط واليأس، يفكر كيف سيضع حدًّا لهذا العذاب وهذه الآلام، وبأي ثمن! كما تفعل ضحايا فرق الموت، عندما يزجّون بالضحية العارية وقد تمزّق جسدها من الجراح في الماء المشبّع بالملح، ليتغلغل تحت جلودهم المتسلّخة، ليحدث ألمًا، الموت أرحم منه، فتفضّل الضحية أن تُغرق نفسها تحت الماء، لتموت غرقًا وانتحارًا، مرةً واحدة، على أن تمكث بهذا العذاب، تواجه الموت عشرات المرات،

فيدرك الجلاد ذلك، فيغطس في الماء الذي لا يؤثر بجسده السليم، لينقذ الضحية، ويتلذذ على عذاباتها.

قمّة الساديّة، فهل سيصمد؟ يصبر؟! يتحمل (يوسف)؟ أم يفضل الانتحار؟ بالاعتراف على كل شيء! ويبوح بما يعرف! ويؤلف ما لا يعرف.

ساعة أخرى أو تزيد، عاد صاحب الكف الثقيلة ليُريح على رقبة (يوسف) من جديد، جاذبًا إياه من رقبة قميصه، فيقف، ويجره من تلابيبه، يسير ببطء شديد، يشعر بالدم يتدفق في أوردته، كأن قرية نمل بدأت تسير تحت جلده، وتحفر بيوتها في عضلاته، بصعوبة تقدم بضع خطوات، وبعناء صعد ثلاث درجات، فأيقن أنه داخل غرفة المحقق، رائحة الهواء، حركته، برودته، نفس المشاعر التي دخل بها أول مرة، قبل أيام إلى هذا المكتب، حين قال له: إلى الملتقى، غدًا أراك، أزال صاحب الكف الملوث بدماء الثائرين، وآلام الراسغين خلف الجدران، الملطخة أياديه بدماء الشهداء من النساء والأطفال على ثرى هذا الوطن الحبيب، أزال بيده النجسة الغمامة عن عيني (يوسف) ليكشف عن نفسه، وجه بلا ماء، مائل إلى الطول، صفيق، حاد الصوت، أقرب إلى النهيق تارة، والعواء أخرى منه إلى الزعيق، لعابه يتناثر كلما نطق، كما الكلاب عندما يعرق لسانها، فيتطاير لعابها، أنف طويل، تقطن أعلاه نظارة طبية شفّافة صغيرة.

تقدم وجلس خلف مكتبه، وترك الحارس راكعًا تحت أقدام (يوسف)، يوثقها بحلقه فولاذية مثبتة في أرضية المكتب، ثم اعتدل ليجمع يدي (يوسف) إلى يدي الكرسي، ويُحكم وثاقها، لكن (يوسف) قد

سنحت له الفرصة، وقد استغلها، فقبل أن يقيده الحارس، اعتدل وتمايل بنصف دائرة يمنة ثم يسرة، حتى سمع طقطقة عظامه، يريد أن يُسوي بنانه، ضاربًا قدميه بالأرض، محركًا فيهما السائل الأحمر، ثم جلس، وأكمل الحارس عمله، ثم انصرف صافقًا الباب خلفه.

فتح اللّص حاسوبه مُتلصصًا على المعلومات التي أرسلها جواسيسه وعملاؤه، و(يوسف) يحدق به، ويفكر بكلام المحقق الأول، وينتظر ما ستفصح عنه شفتا هذا المحتال الذي التفت إلى (يوسف) مُعرّفًا عن نفسه.

أهلًا وسهلًا (يوسف)، أنا الكابتن (موشيه) _يعني «موسى» بالعربي_، أنا مش المسئول الأول عن ملفك! بس أنا مسئول المنطقة عندكم!، لا تستغرب، إحنا في (دولة إسرائيل) خبيبي، ضباط المخابرات «الشاباك» موزّعين على كل المناطق، حتى لو ما فيه إلنا جيش فيها على الأرض، بس إلنا معاونين وجيش من المساعدين!، آه خبيبي، إحنا زي (أمريكا) محتلين العالم كله، وكل مكان إله مسئول، بيتابع شو بيصير هناك، زي ما بنتابع شو بصير في «تل أبيب».

وبلهجته الثقيلة، وعربيته الممتازة التي يغلب عليها حرف الخاء بدلًا من الحاء، والكاف أو الألف بدل القاف، والدال مكان الذال، وبعض الممدود، والراء المهترئة اهتراء الفرشة في زنزانته، إلا أنه يفهم كل الكلمات ويعرف معناها الصحيح وإن كان يلفظها بشكل غير صحيح.

المهم إنتَا كنت مع المخرب (عماد) ومعلوماتنا أكيدة، والطيارة بدون طيار صورتك وصورك موجودة عنّا، وتعال شوف.

وأدار شاشة صندوق حاسوبه إلى (يوسف) واستطرد في الحديث شارحًا جغرافية المكان وطبيعة ما حدث، هدا البحر خبيبي، وهادي الأكوام من دمار البيوت، إنتو اللي حطيتوها مش إخنا، وهدا الأسفلت، وإنتو كنتو هون، وهون صار الاشتباك، ومن هون طلع الطراد من البحر وأطلق النار عليكو.

أعاد المحتال شاشته إلى مكانها، وظل يقلب صفحاتها، ويحرك فأرتها، ويحدق النظر، دون أن ينبس ببنت شفه، وترك (يوسف) غارقًا في صدمته، التي وجدت صداها في نفسه، بارقًا بصره، محدّثًا نفسه، إلا أنه سيطر على أعصابه، وتمالك نفسه، وبقي هادئًا يفكر في الجواب، وهو يجهل المسموح والممنوع من الكلام، ونفسيته المنهارة التي يبذل جهده ليزمّها لا تسمح له بالتفكير العميق، فالذهن المشوش لا ينجو من الخطأ، وبقي تفكيره سطحيًا، خطؤه أكثر من صوابه، كمن يتعلم من كتابه دون شيخه، مجهوله أكثر معلومه، يفكر، ويفكر، لكن لا يعرف أين وصل، ولا بماذا يفكر.

معمعة أفكار وهواجس، والصمت سيد الموقف، لأن الفم المطبق لا يدخله الذباب، فأين المفر؟!، كلا لا وزر.

13

لا يُسَافِرُ غَيْرَ الوِحْدَةَ، وَلَا يُسَاهِرُ غَيْرَ الوَحْشَةَ

وجد (يوسف) لنفسه قصة يتذكرها، وإن كانت غير مهمة، وزد على ذلك العقل المشوش لا يقدر أن ينجو من النسيان، في لمح البصر نقر عصفورٌ رأسه أعاد ذاكرته إلى الوراء، بسرعة البرق ارتسم المشهد أمامه من جديد، يفكّر بصوت مرتفع، كلا لا تحرك به لسانك لتعجل به.

خطّطت بنفسي هذا الموقع العسكري، ورسمت خارطته على دفتري المدرسي، زرته مرات لأعاينه عن قرب، سلّمت المعلومات كاملة لأبي الحسن، كلّمني بعد شهر، أخبرني أن أجهزّ نفسي غدًا للمبيت خارج المنزل، لم يفصح لي عن السبب، كنت جديًا ملتزمًا، التقيته بعد صلاة المغرب في المسجد الكبير، خرجت من الصلاة، انتظرته أمام الباب، تأخر، وجدت صديقي (عماد) حاولت أن أتجاهله، لكنه كان يبحث عني، فتقدم مسرعًا وسلّم بابتسامته التي لم تفارقه، يتحدث إليّ ونظره إلى نهاية الجادة، كأنه ينتظر أحدًا، ثم أفصح لي عن خبيئة نفسه.

- رُوح نتمشّى، هلقيت بيصل (أبو الحسن)

- مين (أبو الحسن) وأبو بطيخ؟!

- من الآخر إنت نازل معي هالمشوار، وأنا ما كنت أعرف إنك بتشتغل مع (أبو الحسن) بس كان شَرْطي إنه إنتَ تنزل معي توصلني، و»أبو الحسن» وافق، وقال لي إنك بتشتغل معنا، حينما تصّورنا وقريت الوصية.

- تصورتوا؟! وصيّة!!؟ ولَه، مشاويرك بيخوفن، وفيهن موت، أنا اللّي بعرفك!! ليكون زي مشوار الكلاب في المنطقة الشرقية لمن طلعو عليكو، وقعدت تسبح على الأرض وتعوِّي زيهن لحد ما شردن، والله إنك مجنون! من وين وكيف أجت على بالك هالفكرة؟!

- بتيجي مع الهُبل دُبل، ما بيختلف كثير المشوار، هناك ارجعنا منّو، أما هذا ما أظن! لأني سأترك الدنيا وأهاجر، لأن من عليها _كلّوا_ طناجر.

- طيّب يا عمي الطنجرة، الله يجزيك الخير ويبارك فيك ع هالثقة اللّي راح تطيّر رقابنا من وراها.

- ماشي يا عم، صحيح أنا مش زمان بعرفك، بس بعرف صحابك من واحنا صغار، وحكولي عنك، وأنا جربتك قبل هيك.

- يا سيدي انجز وسيبني من البرم الفاضي والكلام اللي ما بيطعم خبز.

- لا خبز ولا عدس، خلص الوقت من الأصل، وانحنينا قدّامه؛ لأنه ما بينحني قدّامنا والعُمر كمان خلص، أها، وهي سيارة «أبو الحسن» وصلت.

- من وين له سيّارة هظا أبو جلده، أبو كمونّة.

- أنا عارف شاحذها من التنظيم بيكون، اطلع.

و(يوسف) واصل قصته مع نفسه ويحادثها، فلا تحتاج الذاكرة أكثر من ثانية لتعيد سرد الأيام والشهور والسنوات المنصرمة أمامها.

عادة (يوسف) الهدوء فلا يتفاجأ، لا يستغرب، لا يندهش، أو الأصح أن ردود الأفعال هذه لا تظهر على مُحيّاه، لا يكترث كثيرًا لما يدور من حوله، لكن طلب صديقه (عماد) بأن يكون الصاحب في السفر، والخليفة في الجهاد، وانتبه إلى (عماد) عندما رفض الجلوس في المقعد الأمامي، لكن اعتقد أنه من باب الاحترام ليس إلا، طلب من (يوسف) أن يجلس في المقدمة عندما استقلّا المركبة التي توقفت بعد قليل أمام حانوت، نزل (عماد) واشترى العصير والبزر والمكسرات، وبطاقة شحن للجوال

الجديد، الذي طلبه (أبو الحسن) من (يوسف)، فاستعاره من ابن خالته، ثم سارت المركبة جنوبًا، ثم دارت غربًا، ولم يوقفها إلا شاطئ البحر.

لم يكن (يوسف) يعلم طبيعة المهمّة بالتحديد، ولم يلتفت للمقعد الخلفي الذي كان (عماد) يجهّز فيه نفسه، ويستبدل ثيابه ويمتشق سلاحه ويتمنطق بالقنابل ومخازن الرصاص الاحتياطية، لكنه انتبه إلى القنابل اليدوية الموجودة تحت قدميه، والسلاح الذي عن يساره، بينه وبين السائق (أبو الحسن).

توقفت المركبة، البحر من أمامها، ودير البلح عن يمينها، ومستوطنات العدو التي تحجز خان يونس عن يسارها، طلب «أبو الحسن» منهم النزول، فقال (يوسف):

- احنا وين رايحين؟!

- يا راجل! لهلقيت مش عارف، ع العموم إذا بيصير معك إشي بتنزل ع الشط وبتنسحب على الشّمال، وأنا بكون بأستناك في المعسكر عند المدارس.

- يبدو إني افهمت، بس بتوصلو وبترجع!

نزلا معًا، والتفت العربة يمنةً مستقبلةً مدينة دير البلح على خط البحر، تاركة خلفها (يوسف) و(عماد) والمستوطنات، والبحر عن يسارها، والأراضي الزراعية عن يمينها.

ابتلع الظلام العربة، فقد عمد (عماد) إلى ليلة من الليالي السوداء، فلبسها، وتلفّح بردائها، وألقى بنفسه مع (يوسف) في بحرها الأسود،

ومازالت أمواجها تترامى بهما حتى ألقتهما إلى أكوام الركام التي ساروا بينها، يتجاذبان أطراف الحديث، فقال (عماد): إنتَ مش بتعرف المنطقة والمكان؟! وخططت لعملية تعملها هان؟

- آه يا فالح!

- طيب وليش مستغرب؟ هي المكان، وأنا الاستشهادي اللي بدّو ينفذ العملية.

- يا عيني ماشي، بس أنا مش هيك خططت، أنا بدي عبوتين مساطر، وحدة لازم أزرعها تحت ع الشط، والحفر في الرمل سهل، وعندي مَرَة بألف زلمة، هي بتجيب معها نسوان وكارة وحمار، وبزرعن العبوة، والثانية إحنا بنزرعها هناك بالزبط بين تلتين الرمل اللي عاملات حاجز للأمن الوطني، يعني في نص الخط المنكسر، لأنه يا حبيبي أول ما يصير الاشتباك، راح تطلع دبابة من تحت، فبتلاقي العبوة قدّامها، وراح تيجي الثانية من على الأسفلت، وأول ما تدخل لفّة الحاجز، بتكون العبوة في وجها، افهمت؟ أقنعتك؟ صح؟

- لا، قال (أبو الحسن) إنه أجا ناس من غزة مختصين، وعاينوا المكان وقالوا فش داعي للعبوات.

- والله! وأنا مالي ومالهم، شو دخلني في اللي خلفوهم، أنا اللي بعرف النتائج!

- ماشي يا عميّ أنا بدي أستنا جنود الرجلية، اللي بيطلعوا يتمشوا من المستوطنة.

- طيب هذي نص العملية، والنص الثاني؟ لمن تطلع الدبابات شو بدك تعمل بالسلاح وأنا ما معي لا سلاح ولا زفت.

- ماشي إنت بس وصلّني وارجع، وإذا أجت الدبابات راح تنزل الجنود يمشطوا المكان، وأنا بين هالردم والحجار.

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم في هالليلة اللي إلها أول ما إلها آخر مع شِكلك.

- حبيبك، أنا مش راجع، والليلة فرصة للتنفيذ، وأنا ما صدّقت واقدرت أنام برّة البيت، وبالعافية فهمّت أبوي إنه عندي امتحانات ورايح أقرأ عند صاحبي في الدار.

- قوم يا عم قوم، لنشوف آخرتها هالليلة مع بوزك، وين رايح تجري استنا؟! هات الشنتة وجهّز سلاحك، واسحب الأقسام وخلّي الحبة في بيت النار، واشوية اشوية امشي وراي.

- وين وراك؟! أنا قدامك لأنه السلاح معي.

- يا أفندي امشي وراي على الأقل لو وقعنا بكمين، حيصلني الرصاص قبلك.

- آآه!! وبعدين!؟

- شو آه؟! يعني بكون معك وقت تاخد ساتر، وتبلّش الاشتباك.

- وإذا طخونا مع بعض يا شاطر؟!

- يا راجل الله معنا! هو إحنا أحسن من اللي ماتوا!

- اعرفت ليش أنا طلبتك تكون معي، لأنه ما حدا راح يمشي قدّامي ويوصلني بقلب ورب.

- مش وقت بطولات ونعرات وهيّات، ومرت خالك مش هان لا راح تشوفني ولا تشوفك، ركّز في الطريق يا عيني ودير بالك تقع أو تزحلق الأرض وعرة ومليانة حجار، انتبه للجُرف بلاش ما أشوفك إلا وإنت واصل الشط، حينها راح تتكسّر، وراح يكشفنا ابن هالحرام (الطرّاد)، والقمر لحاله كفيل إنه يكشفنا لو انزلنا تحت.

- ماشي يا سيدي، توكل على الله.

- خلص، يعطيك العافية، بتتعب.

- مش قدّك، ههههه.

- خليك اضحك إنت، شايف هاي التلة.

- آه مالها؟

- مالها في البنك، بدنا نوخذها ساتر، بنتمدد في نصها، راسنا فوق،

وجسمنا تحت، وهيك بنكشف الشط والبحر على ضو القمر، وكمان الأسفلت، تمام؟

- ماشي تمام.

- الأهم من هيك هاي المنطقة بين جرف البحر والأسفلت، مليانة حجار وعمدان باطون، والمشكلة إنها عتمة فإذا أجو منها فراح يشوفونا بدون ما نشوفهم فركّز فيها كويّس أكثر من الشط والأسفلت.

استلقى (عماد) على بطنه أعلى التلة، و(يوسف) بجواره يحدّق كل منهما في اتجاه، وعماد يصوّب فوهة بندقيته أمامه، وجلسا قليلًا ينتظران، حتى سمعا صوت أذان العشاء قادمًا من المدينة، مخترقًا هدوء الليل، فسأل (يوسف) عماد معك وضوء؟

- آه.

- طيّب هات سلاحك وقوم صلي.

- ماشي، شو رأيك أصلي في غرفة الأمن الوطني أستر إلي؟

- ماشي بس حاول اختصر، مش تقعد ألف سنة، صلّي الفرض وخلص، والسّنة بتصليها هان بعينك، وإنت بتراقب؛ يا بتصلي صلاة الخوف ما احنا في حالة حرب، أو صلاة الطالب والمطلوب، لأنه كمان شوي راح نصير مطاردين، قوم إنت لسّه بتسمع كان صرت مخلص، وما تقلق لسّه معهم أربع لخمس ساعات حتى يطلعوا من المستوطنة.

صلى عماد صلاة خاشع مودّع، فكانت هذه آخر صلاة له، تأخر فنزل (يوسف) يمشي خلسة يبحث عنه، فوجده داعيًا باكيًا، اختلس النظر واسترق السمع، فلما وجده في عالم آخر من النيرفانا، تركه وعاد إلى موقعه يترقب، ثم لحق به عماد بعد أن أنهى صلاته وانتهى من خلوته مصطحبًا معه غطاءً خفيفًا عسكريًا للتخفي بلون الأرض، تلفّع به، وانبطح أرضًا ينتظر.

مكثا حتى منتصف الليل الذي سجا، جلس شجاعًا يترقّب، نامت المدن من تعبها، وأرهق الأزواج من غرس زرعها، واستيقظت الكلاب عن رزقها، واللصوص تفتش عن المغفلين، وتقتحم خلوة النائمين، وتخرج القوارض من جحورها، تفزعها بين الحين والآخر، حين ينسجمان مع نغمات هدير البحر، وعماد يتعامل مع الكلب حتى طرده، نامت العيون إلا عيونها.

تقاسما سلاحها، فأخذ (يوسف) بعضًا من القنابل اليدوية التي ارتصت بمحاذاة رأسيهما أعلى التلة، يتناوبان المراقبة، ينتظران على أهبة الاستعداد، ويجيبان على هاتف (يوسف) يطمئن عليهما (أبا الحسن).

اقتربت عقارب الساعة أن تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل، (يوسف) يرفض العودة، وعماد يجمع سلاحه، ويُصّر على عودة صديقه، فوقت المعمعة قد اقترب، والليل أوشك أن ينجلي.

- اسمع (يوسف) أنا جاهز، وكل ما أفكر في هالدنيا بَلَقيها اشي تافه، وأتفه من التافه، ملهاش أي قيمة، وما بعرف على شو الناس متمسكة فيها، اللي آخرتها موته، وأنا عامل هالعملية لله، وفي سبيل الله،

وكل ما يوسوس لي إبليس بأتذكر إني رايح أقابل ربي، شو بدي أحسن من هيك لقاء، وأنا طلبت الشهادة، وحدّدت لنفسي كيف أموت، وهيك بكون عملت إشي للغلابة والمساكين اللي اليهود بيذلوهم ويبهدلوهم على الحواجز وفي السجون، ودمّروا بيوتهم ورموهم في الشوارع، فحتى تعيش الأجيال القادمة، لابد أن يضحي جزء كبير من الأجيال الحالية.

- أنا راح أموت عشان أمي وأمك، وأختي وأختك، وعيلتي وعيلتك وأولادهم وأولاد أولادهم، والحارة والمخيم والمدينة، والشعب كله، يعني أنا طلبت وحدّدت، لا حدا حكى معي، ولا حدا لعب براسي، ولا حدا أقنعني ولا كل الكلام الفاضي اللي بتسمعه، اللي بيطلعوه ع الاستشهادية، وزيادة على هيك، أنا أعطيت (أبو الحسن) ورقة بالرسومات والمقاسات والمواد لصناعة صاروخ، وقبل هيك عملت اثنين، وجربت واحد منهم ونزل على «نيتساريم» ونجح والحمد الله، والثاني عند صاحبي في «البريج» بتروح تجيبه، ويا ريت تكملوا طريقي من بعدي، وتجربوا وتحاولوا ألف مرة، وراح تنجحوا في النهاية، وحتزبط معكو.

- ماشي يا عم، صاير تحكي حكم، دُرَرَ ما شاء الله، هذا الحكي يا سيدي وهاي الوصايا بس في الأفلام، إحنا في فلسطين الواحد منّا بيطلع من الدار، بتقلّه أمّه وين يا ابنيه، بقلها رايح استشهد، وبيرجع إلها بعد ساعة حاملينوا على أكتافهم، وعلى المقبرة وأمُّه وراه بتزغرد، غريب هالشعب!

أوّل ثلاث رصاصات اخترقت قبعّة (يوسف) والهاتف المحمول، وقنبلة يدوية بمحاذاة رأسه، أخرجت لهبًا أحرق شق وجهه الأيمن،

فتدحرج حتى أسفل التلة، يلوك الرمال بين أسنانه، ويستنشق الغبار، فسمع عماد ينادي من بين أكوام الركام بصوت خافت مكتوم:

- (يوسف)، (يوسف)، قوم، صَحْصِح، انسحب بسرعة أنا جاهز، ما انتبهوا غير إلك، خليهم يلحقوك.

استجمع (يوسف) قواه التي خارت وأسرع من بين الركام تاركًا عماد خلف ساتر إسمنت، عند طرفه فوهة البندقية، ألحق (يوسف) الخطوة بالأخرى مُحني الظهر، كأنه يمشي على أربع، تفاديًا للرصاص، الذي يخترق الأرض عن يمينه وعن شِماله، حتى اخترق ملابسه، واستمر البرج الحديدي المجنزر المصفّح يطارده بمدفعه ورشّاشه، حتى وصلت الدبابة الحاجز الرملي، ودخلت مركزه، فأفرغت حمولتها من اللصوص.

ضلت المجنزرة طريقها، فأعلن (يوسف) عن نفسه أمامها، وسار بضع خطوات أمامها على الأسفلت، وما إن تأكد من رؤيتها له حتى ألقى بنفسه شرقًا إلى منحدر بجانب الطريق، فابتلعته الأراضي الزراعية التي كان يتوسطها بيت قروي، التفت حوله وسار شَمالًا، وإذا به وجهًا لوجه، طفلًا أعزل نحيفًا مرهقًا أمام أحدث دبابة عسكرية على الأقل في الشرق الأوسط.

قذفته بقذيفة مسمارية، وشاء الله أن تصله القذيفة بالتزامن مع سقوطه متدحرجًا من أعلى منحدر لا يتجاوز المترين، تجمّد (يوسف) مكانه قليلًا، حتى أدارت الآلية ظهرها معتقدة أنه قتل، فواصل طريقه بين البيوت النائمة، وقبل أن تستفيق من غيبوبتها وسباتها، انتقل من حارة إلى حارة، ومن جادة إلى جادّة، حتى ابتلعته المدينة، وهو يسمع أزيز الرصاص من بعيد.

ظلّ عماد في مكانه راسخًا رسوخ الصخور التي أمامه في قعر البحر، ثابتًا ثبات أكوام الركام التي بين يديه، كالرواسي الشامخات، يطلق الرصاص بكل ثقة على اللصوص الذين هجرّوا أجداده قبل ما يزيد عن نصف قرن من قراهم، ودنّس كبيرهم «شارون» المسجد الأقصى بأقدامه قبل العامين، ومنذ ذلك الحين وعشرات الشهداء يرتقون كل يوم في غزة، والضفة الغربية، والداخل المحتل، ويُؤسر المئات دفاعًا عن أرضهم ومقدساتهم، وما بين التهجير والتدنيس، مئات المذابح والمجازر التي ارتكبت في كل قرية هُجّرت، ولم يشتهر منها إلا القليل، سواء في فلسطين أو لبنان أو مصر وسوريا، كدير ياسين، وصبرا وشاتيلا، وقانا الأولى والثانية، وكفر قاسم، ونحّالين، وعيون قارّة، وعيون البقر، ومجزرة الأقصى، والحرم الإبراهيمي، ومن قبلهم فعلت أمهم بريطانيا في مجزرة (يعبد) التي قتلوا فيها الشيخ عز الدين القسام ورفاقه، فلا يمكن للفلسطيني أن ينسى عذابه، وعذاب أجداده، وكما يقول المثل عندهم: «عمر الأسى ما بينتسى».

عادة اللصوص، تجدنهم أحرص الناس على حياة، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر، تلك أمانيّهم، لن يرضوا عنك ولا عن غيرك حتى تتّبع ملتهم، ولن يرضوا، هم السفهاء فاحذرهم، يخادعون الله، فكيف بخلق الله؟! ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض، فكيف بميثاقهم ووعدهم مع البشر؟! قتلوا أنبياء الله، فماذا سيفعلون بأتباع الأنبياء؟! كما فعلوا بحواري المسيح _عليه السلام_ حصّنوا قراهم بالجُدر الإسمنتية التي ابتلعت وسلبت أراضي العباد، وضمها اللص إلى

نفسه، وادّعى ملكيتها، هذا الصّلف الذي لا يعادله ظلم، تحصنوا داخلها واختبئوا كالفئران في جحورهم، لا تراهم لتقاتلهم كما الرجال، كالأفعى في أوكارها، فلن يقاتلوا إلا في قرى محصنّة أو من وراء جُدر.

رغم ذلك ففي قديم الزمان، اقتحم عليهم نبي الإسلام محمد ﷺ قراهم، وحصونهم، بعد أن غدروا وخانوا ونقضوا العهد والميثاق، فدخل على بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع، وخيبر، وفدك، ووادي القرى، وتيماء، ودمّر حصونهم كحصن ناعم، الصعب، النطاة، الشق، النزار، والقموص، صدق فيهم قول الله قديمًا، وما زالت الصورة تتكرّر أمامنا حديثًا: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: 14].

امتلأت السّبع الشداد بالسُّرج التي أطلقوها من قذائفهم، وتلبّدت المعصرات بالطائرات العمودية التي أنزلت رصاصًا ثجّاجًا، وازدحم الشاطئ بالضفادع البشرية، واليم بالزوارق الحربية، والبرّ بالحصون المتحركة المجنزرة الفولاذية المصفّحة، بمدافعها المشرعة، فأصبحت السماء سِراجًا وهاجًا، انقلب الليل نهارًا، والأرض إلى ساحة معركة، الكل اجتمع وصوّب سلاحه على نقطة واحدة، ومركز واحد، اسمه (عماد).

تستمع المدينة إلى أزيز الرصاص وهدير الدبابات، وتحليق الطائرات، والأم والأب والأهل يراقبون من بعيد من شرفة منزلهم، والأم تدعو الله أن يحفظ المقاتل ويثبته وينصره، يلهج لسانها بالدعاء دون توقف، كما أمهات

فلسطين عند سماع دوي الانفجارات، وهي لا تعلم علم اليقين أن هذا العملاق يكون ابنها، لكن قلبها يقول لها أن هذا يخصّكِ، قطعةٌ منك، وكل أبناء فلسطين أبناؤها.

التفّوا حوله كما الضباع حول فريستها، وهو يطلق النار في كل الاتجاهات، ويصيب هذا، ويجرح ذاك، وتأتي النازعات غرقًا على الكافرين، ويستغيث هذا ويسقط ذاك، وتتسابق الناشطات نشطًا على المؤمنين، ليسقط واقفًا كما أشجار أرز لبنان، الشاهدة على كل شهيد، وكل مجزرة، قصة، حكاية، رواية، ثورة، على كل قطرة دم سقطت وهي تثور ضد الظلم والاحتلال.

مازال (يوسف) على كرسي التحقيق يروي قصته لنفسه، وهو يدرك أن اللص لا يعترف بخسائره، هكذا تعودّنا عليه، يحب أن يظهر دائمًا بمنظر القوى الشجاع، الجيش الذي لا يُقهر، صاحب أضخم ترسانة عسكرية في الشرق الأوسط، الذي انتصر على الجيوش العربية في ستة أيام، فهل يا ترى سيعترفون لـ(يوسف) بحقيقة ما جرى مع صديقه (عماد) في تلك الليلة الليلاء، وتلك المعركة حامية الوطيس، حتمًا سيعترفون إما الآن وإما أمام المحكمة، الآن فرصتهم ليُظهروا أنفسهم بمظهر الضحية.

الشرق الأوسط، الاسم الذي اخترعه العالم الظالم، الذي انتدب «إسرائيل» لاحتلال العالم العربي، نيابة عنه؛ لتبقى غدّة سرطانية تنهش وتُضعف الجسم العربي، كلما حاول أن يتحّد، أو يقوى، أو أن يطوّر من نفسه، اخترعوا هذا الاسم ليكون لهذه الدولة المارقة موطئ قدم، فالشرق

الأدنى منذ الأزل معروفة دُوله، وجغرافيته، وتاريخه، وأعراقه، وأجناسه، من بلاد الرافدين ومصر القديمة، وإيران القديمة، وأرمينيا والأناضول، وبلاد الشام المعروفة، ومثله الشرق الأقصى الذي يشمل مجموعة دول شرق آسيا كالصين وتايوان واليابان والكوريتين ومنغوليا، فلا هذه ولا تلك ولا هذا ولا ذاك، يشمل على هذه (الدولة) أو هؤلاء القوم، فكان لابدّ من تغيير التاريخ، والجغرافيا، ليتم زج هذا الكيان، وهذا الجسم الغريب، وهذه الغدّة، وسط هذا المكان، دون أن يكون منبوذًا من أحد، هذا الفن في الكذب والخداع والاحتيال، في كذب الكذبة وتصديقها.

14

أَنْفُكَ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَجْدَعًا

اقتربت الساعة من أناس، وانشق القمر ابتهاجًا بفرح أناس، هبّت المرسلات عرفًا، عصفت العاصفات، حلقت الملائكة الناشرات نشرًا، وتبعتها الفارقات فرقًا، وجاء يوم الفصل، الذاريات تذرو التراب في وجوه أناس، والحاملات تحمل الأمطار رحمةً بأناس فهل من محيص، من معمعة الدّنيا وحساباتها؟!

أناس تأكل دجاجًا، وأخرى تسقط في السياج _كما يقول المثل_، أناس وجوههم ناضرة! وآخرون وجوههم باسرة! الجنّة أُزلفت من أناس! والجحيم سعّرت لأناس! قوم في النعيم، وقوم في السعير.

مضت الأيام وانقضى منها ما يقرب الأسبوعين، و(يوسف) تُزيّن أطرافه الأغلال، ويعيش في الصريم على كرسي الآلام في مكانه لا يتزحزح، ويأتي العيد ويلبس اللّابسون الجديد، والأم بدمعتها: العيد لأصحابه، ولست من أصحابه، لكنها مضطرة أن تبتسم وتهنّئ الزائرين، والأب بحسرته ينظر إلى أطفاله، الدنيا لا تقف لموت أحد، والشمس لا تَكسف لفقد أحد، والقمر لا يُخسف لبُعد أحد، والحياة كالحياة، لا تشبه إلا نفسها، تسير وتمضي، وتنقضي ولا تتوقف، والقطار كالقطار، يسير لكنه يتوقف في محطته.

ويمضي العيد وينقضي، و(يوسف) لا يعرف إن عاد العيد أم لا، فقد اعتقل مع اقتراب دخول العشر الأواخر من رمضان، والأيام نُسخ كربونية، والسجّان يقدّم وجبة، ويومًا ثلاث وجبات، فمرة يصوم، ومرة يفطر، لكن حسب الحسابات الغير دقيقة، والتوقعات وسؤال السجان، حتمًا هذه الأيام العيد.

يقدّر أنه العيد، ويهنّئ نفسه، ويستذكر (أم عماد) وهي تزغرد، يوم أن جاءتها بشرى استشهاد ابنها، وهي تودّعه بقلب راضٍ مطمئن، وتقبّله من جبينه بصبر وثبات، أنتم السابقون ونحن اللاحقون، وتمنى لو كانت أمه في نفس الموقف لتودّعه، أرحم من الموت الذي يراه كل لحظة دون مُودّع.

لم يعد به الشريط ليستذكر، أو ليفتح دفتر مذكراته، من ناحية قساوة الحال، وبطش السجان، ومن ناحية أخرى لا ذكريات للعيد في ذاكرته، كما البشر، ولا يختلف عن أي يوم من أيام السَّنة الـ 365 يومًا وربعًا، صلاة، إفطار، لبس جديد، دورةٌ على أربعة بيوت للمعايدة، مع الوالد، العم، الإخوان، أبناء العم، صلاة الظهر، فقيلولة، صلاة العصر، فرعي الأغنام حتى المساء، صلاة المغرب، إطعام الأغنام وسقايتها وحلبها، صلاة العشاء، ثم إلى النوم.

هكذا كان في رتابة حتى خروجه الذي لم يعد من بعده، فلا زيارات، لا رحلات، لا ملاهي، متنزهات، ألعاب الأطفال، لا وقت للتلفاز، ويصنع الوقت ليلًا، ليخرج ليرابط، ويرصد ويقاوم، حتى حُرم من اللعب مع أطفال الحارة والمخيم؛ لأنه سكن أطراف المدينة بلا حارة ولا مخيم، فلا ذكريات يتحسّر عليها، أيتذكّر شيئًا لم يره؟!! أم يرى شيئًا لم يفعله!

رغم هذا الحرمان وهذا الظلم لهذه الطفولة إلا أنه كان له الأثر الإيجابي على نفسه في أقبية التحقيق، فلم يضعف ولم ينل السجان من عزيمته، وكان أعزب، فلا زوجة ولا أبناء، ولا عشيقة، ليهتم لأمرهم، ويشكّلوا له نقطة ضعف يستغلها ذاك اللص، الذي لم يجد لـ(يوسف) يدًا تؤلمه ليضغط عليها ويبتزّه بها، غير والديه اللَّذين لم يشكّلا نقطة ضعف عند (يوسف)؛ لأنه يعرف صمودهما وثباتهما في النوازل، فقد فقدوا خمسة من الأبناء، ولم يقولوا إلا: لله ما أخذ، ولله ما أعطى، فلم يكن قلقًا حيالهما.

ما أسرع تقلبات الأيام، ومرور الأزمان، وما أبطأها عند الانتظار، والأسوأ عند النسيان، فلم تمض الشهور ولا السنوات، ليُنسى في غيابة الجب، فيعقوب عليه السلام ظل مشتاقًا لابنه (يوسف) _عليه السلام_ حتى ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم، ولم ييأس، وانتظر اللقاء عمرًا مديدًا، حتى تحقق، لكن ليس كل الآباء يعقوب، ولا كل الأبناء (يوسف)، وليس كل الأمهات الخنساء التي بكت، ورثت أخاها (صخرًا) في الجاهلية، وصبرت على فقد أبنائها في الإسلام.

تقدّم ابن عم (يوسف) طالبًا يد أخته، ففرح من فرح، وقَبل من قَبل، واعترض من اعتَرض، وغضبَ من غضبَ، لكن القطار لم يتوقف، ولم ينتظر أحد، كما لم ينتظر أحد (يوسف)، ليأخذ رأيه، أو _على الأقل_ ليصل عنه أدنى خبر.

استعدت العائلة وتجهزّت، هنأت العمّات والخالات، وبارك الأعمام والأخوال، وفرح الجيران، وزارهم الأصدقاء، وانتظرت الأخت بسعادة لزيارة المحكمة الشرعية، حلم حياة كل فتاة، لتجلس أمام قاضيها للسؤال: هل تقبلين به زوجًا على سُنَّة الله ورسوله؟

ويستعد ولي الأمر ليضع يده في يد نسيبه، بمباركة الشّيخ، وبعد السؤال والجواب، سيكتب العقد وشروطه، ويوقَّع على عقد الحِل من جميع الأطراف، ثم يُعلن عنهما زوجين على سنة الله وسنة رسول الإسلام محمد ﷺ.

عقد حلّ، وليس عقد تملّك، كما يعتقد الرجال أن الزوجة أصبحت ملكًا له، بل هو عقد حلّ، لتصبح حلاله، يرى منها، ويفعل فيها ما كان

يُحرم عليه قبل العَقد، من الذي زرع هذه الأفكار المقلوبة المعكوسة في عقول البشر؟! فأصبحت فرضًا مصنوعًا؟!

الزواج لمن استطاع الباءة، ومن لم يستطع فعليه بالصيام، ليس الصيام عن الطعام والشراب فقط؛ لأن العلم أثبت زيادة ومضاعفة الشهوة الجنسية عند الصيام المعروف، أما الصيام المقصود هنا هو الصيام عن الكلام ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: 26] فالصيام وِجاء، ويساعد على النسيان، فالحديث في الأمر يثير الغرائز وينميّها.

المشهد تتشابه فيه الأسماء، محكمة وقاضٍ، سؤال وجواب، أوراق، أموال، توقيع، ختم، قاعة، شهود، لكن هنا يعلن زواج، فتقام الأفراح، الاحتفالات، السّهر، السّمر، ويبدأ شهر العسل، ودخول الدنيا من أوسع أبوابها.

أما هناك يُعلَن عن الموت، فتقام الجنائز والأحزان والأتراح، ودخول الجبّانات والحفر والقبور من أضيق أبوابها، وكما يقول (مارك توين): موسيقى الزفاف، وموسيقى الحرب، متشابهتان، فكلتاهما تسبق المعركة، لكن شتان بين معركة ومعركة، معركة الموت ومعركة الحياة.

رغم هذا وذاك، ينتظرون خبرًا عن الغائب، هذا عالم المتناقضات، ويتمنون له العودة، ليشاركهم أفراحهم، ويبقى التضامن مع الابن المفقود الذي لم يُعرف مكانه بعد، لا يتجاوز المشاعر والعواطف، وفي أحسن الظروف والأحوال السؤال عنه لدى المؤسسات الحقوقية والدولية كالصليب الأحمر الدولي، أو تذيب كحل العين فينساب على الخدود

ويضيع عناء الوقوف أمام المرآة هباءً، ويذهب الجمال، وتظهر الحقيقة، فالأقنعة لا تدوم على الوجوه طويلًا.

فرق كبير بين عائلة وعائلة، أمٌ وأم، وأبٌ وأب، تربيةٌ وتربية، قلوب وقلوب، فـ(حسن) منذ لحظة اختفائه توقّف الزمن في بيته، وتعطلّت عقارب الحياة، بدأت خلية النحل تعمل، تبحث وتُنقّب، قلَبوا الأرض رأسًا على عقب، كما يقلِب المحراث التربة لزراعتها.

ألغوا زواج أخيه المقرر بعد شهر، وتأجّل حتى إشعار آخر، تزوّج جارهم زواجًا مكتومًا مكبوتًا صامتًا صمت الجدران، بلا طبل ولا زمر، بلا أغانٍ وأهازيج، فرحٌ بلا فرح، احترامًا لمشاعر جيرانهم، وآلت الأم على نفسها ألا تخرج من بيتها حتى يعود إليها البعيد (حسن)، وعزم الإخوة والأخوات على أن لا يشاركوا في مناسبات الأعراس حتى عودة أخيهم.

هناك عائلات لا يشعر الابن بوجودهم، أو اهتمامهم، أو حبّهم، أو تعاطفهم، ويتعوّد على ذلك، ويتعايش معه على أنه أمر طبيعي، ما لم تُثبت له الأيام عكس ذلك، فيتحول إلى صخرة صمّاء، ومع مرور الزمن والسنوات، تصل إلى القطيعة التامة إلا من الواجب الشرعي.

وهناك مِن الأهلين مَن يَشعر الابن من اللحظة الأولى بوجودهم، لاهتمامهم لأمره، والسؤال عنه، والشوق والتوق إليه، وفعل المستحيل لأجله، والعمل على إرضائه ورفع مقامه، واستشارته في كل صغيرة وكبيرة، إضافة إلى الحب والحنان والعطف الذي يشعر به، ليس من خلال كلامهم فحسب، بل من خلال أفعالهم، فيحبهم أكثر ويعشقهم لدرجة الشغف،

ليس لأنهم مجرد أهل وعائلة، بل لأنهم أصبحوا الصديق والحبيب، والقريب، والسند، فيشتاق إليهم شوق الجدباء إلى الماء، ويعشقهم عشق عنترة لعبلة، وتتيّم روميو بجوليت.

شتّان بين محكمة ومحكمة، بين واقع وواقع، بين أساور الذهب وأساور الفولاذ، بين مقعد الاسفنج وريش الحمام، وكرسي الحديد واللجام، بين من يسمع ومن يشاهد، كما الفرق بين الثرى والثريّا.

شتَّان بين الحقيقة والخيال، بين الواقع والأحلام، تمامًا كالفرق بين حرب تُروى وحرب تُرَى، شتان بين من يُحب ويثبت حبه بعمله، ومن يحب ولا يعمل، إذا كان الإيمان بالله ربّ الأكوان خالق العالمين إله الحيوات، هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل، فالإيمان دون عمل هباء، غثاء، كغثاء السيل، فكيف بين البشر الذين يدّعون الحب، الصداقة، الأخوة، الأبوّة، الأمومة، النّصرة، الدعم، التضامن، وأقصى ما يفعلون الشعارات الجوفاء، والخطابات الرنّانة، فلكل شيء حقيقة، فما حقيقة قولك وادعائك؟!

15

﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾

المزمل: [12 – 13]

الغضب يؤدي إلى ارتفاع شحوم الدم، فتتصلّب الشرايين، ويثبّط حركة الأمعاء، ويُضعف جهاز المناعة، ويُشتّت العقل، ويتفوه اللسان بأشياء ما كان له أن يتفوّه بها لو كان حليمًا، لمعرفته بخطورتها، وخطورة نتائجها.

لذلك كان خُلُق الحلم سيد الأخلاق، وقد نهى نبي الإسلام محمد (ﷺ) عن الغضب فقال: لا تغضب، لا تغضب، لا تغضب، وقال: «ليس الشديد بالصَّرعَة، ولكن الشديد من يملك نفسه عند الغضب»، فهو ريح قوية، تطفئ مصباح العقل.

يدرك (الشيخ) بخبرته هذه المعاني، ويعلم كذلك هدف هذا المحتال الذي يريد أن يغرقه في حَالة من الوعي واللاوعي، تحت وطأة التعذيب الذي لا تظهر آثاره على الجسد، الذي يتحول إلى هيكل عظمي، يكسوه الجلد.

وصل تصريح المحكمة، ليمارسوا التحقيق العسكري على أيدي خبرائهم ومختصيهم، فلا يمكن أن يخرج (الشيخ) غدًا، ويقول: عذّبوني، ويرفع الشكاوى للمحاكم، فأول سؤال: لكل شيء حقيقة فما حقيقة قولك؟! فلا دليل، لا جراح، لا دماء، لا آثار سياط، لا تسلّخات، وإن وُجدت خطأ، فلن يراه أحد حتى يبرأ وتلتئم الجراح، ولن يجد ندبة، ولن يثبت أيّ فحص طبي أن به خللاً ما إلا بعد سنين، بعد أن تسقط القضية بالتقادم.

قِلّة النوم التي تصل به إلى مرحلة الهذيان والجنون، الشَّبح، التعليق من يديه وهما أعلى رأسه، وبالكاد يقف على أطراف أصابعه لساعات طوال وأيام قصار قبل الانتقال إلى أسلوب آخر من أساليب الحقد والحقارة والقذارة، يمكث هذه الساعات طوال الليل أو النّهار، بين غرف اللصوص والمحتالين، ليفاجئه كل مار بلكمة يد أو ركلة قدم، أو بصقة أو صرخة أو شتيمة، ليبقى منبه التوتر، وانتظار المجهول يقظًا، كناقوس يدق في عالم النسيان.

يتحول إلى خفاش، وطواط ليل في مغارة، معلق من قدميه، ليصب السائل الأحمر في وعاء رأسه، فتتضخم شرايينه، محدثة ضغطًا هائلًا على المخ، يجف الدم في الأطراف، فيتحول اللون أصفر، أزرق، ثم سوادًا، ويضاف إليه الخنق بالماء، أو بقبضة اليد، حتى يجهد القلب والرئتين.

حاول المحتال وحاول، وجرّب اللص وجرّب، لكنه باء بالفشل، وهو يوقن أنه سيفشل، لكنه لن يعلن عن فشله قبل أن ينهك خصمه، ويبذل كل جهده ليرسله إلى الموت ويعيده، ليخرجه من قبره بعاهة مستديمة، لا تكشف آثارها إلا بعد حين، تمامًا كالثائر الذي يعلن إضرابًا مفتوحًا عن الطعام، احتجاجًا على اعتقاله، السياسي، الإداري، بدون تهمة، الاحتجاز الاحترازي، حتى يشاء اللعين، ويعطي أوامره للقاضي بالإفراج عنه.

بالرغم من أن كل من يعمل في مؤسسة النصب والاحتيال يعلم علم اليقين أن هذا الثائر المنتفض سينتصر في النهاية، وسيُجبرون على تنفيذ مطالبه إلا أنهم يتركونه يتعذب ويماطلون في التفاوض حتى يدخل مرحلة الخطر وتتهتّك أعضاؤه الداخلية، ويزور السماء يسلم على أهلها ويعود، ثم يستجيبون له، مع الاحتيال في الكلمات والألفاظ، ليكتشف الشجاع بعد أيام قليلة أنه أصيب بالقرحة وفقدان إحدى الكليتين، وخلل في أداء البنكرياس، أدى لوصول بعض الفيروسات إلى الأمعاء أو الدم، وبالتالي علاج مدى الحياة، هذا غير البواسير والنواصير، وعسر الهضم، وآلام الأسنان واللثة، وتساقط الشعر.. إلخ.

أهملوه، تركوه ليأكل ويشرب ويرتاح قليلًا، بعضًا من الدقائق، تسمح لأعضائه بالراحة، ولأعصابه بالارتخاء، ولجسده أن يبرد، ولدمه أن يتدفق، هذا الدم الشحيح الذي يحتار، أيذهب ليوقظ أعضاء جسده التي أصيبت بالشلل، أم يذهب إلى المعدة، ليهضم كسرة الخبز، وإن كانت ضئيلة تلك الطاقة الموجودة فيها فهو بحاجتها، كل الجسم بحاجة إلى هذا الدم، ويتركون المجال لعقله أن يعطي الأوامر لكل سلامة وشعرة، للاسترخاء والاستعداد للنوم.

ارتخاء كامل للجسد النحيل، فجأة يداهمه من يتعامل مع نفسه أكثر من إله، مصر هو وقومه أن الله خادمهم _تعالى_ عما يقولون، ليعذبوه عذابًا نكرًا، ليرهقوه عسرًا، فتكون العذابات والآلام أشد وطأة، فبعد تلك الدقائق أجلسوه على كرسي بلا ظهر، ومددوا ظهره المنحني أصلًا إلى مقعدة الكرسي، فعكسوا انحناءته، ففتحت ذراعاه بجانبيه، كجناحي طائر، فغرز أصابع قدميه بالأرض كالأوتاد ليحافظ على توازنه خشية الانقلاب أو الانزلاق، كالرافعة الآلية، فجمعوا يديه أسفل ظهره، فشدو الوثاق إلى الوثاق، اليدين إلى الرجلين، اقتربت الأربعة الأرسغ من بعضها، ليصبح جسده كالموز في قوسه، فلا يستطيع الشيخ أن يحمي نفسه من الضربات المنهالة على بطنه المشدود، ولا من رائحة الكيس النتن الذي ألبسوه في رأسه.

وتمر الدقائق وتمضي الساعات، يلج الليل في النهار، والنهار في الليل، وهو يتحول من حالة إلى حالة، لكن المنحني انحناءة الموز لا يعنيه إلا التفكير بآلامه، ومتى وكيف ستنتهي؟! وكيف السبيل والخلاص والتغلب عليها؟! وبين هذا وذاك استراحات الجلاد والضحية في ميدانها،

معلّقة، أو ماكثة بقوسها، تعاني من الآلام، وتتحمل الجراح، ليعود إليها المحتال من جديد، لاغيًا فترة الراحة بين المراحل، يواصل بدلو من ماء منهمر على الكيس، ليبتل، فيغلق المسامات فيمتنع الهواء من الولوج، والتسرب إلى أنف (الشيخ)، فرائحة الكيس تكفي لقتله، فازداد الحال مع الماء خطورة ومشقة، وما إن بدأ يلفظ أنفاسه الأخيرة، ليواجه الموت ببسالة حتى يسارع الجلاد _الذي يراقب عقارب ساعته باستمرار_ إلى تجريد رأسه من الكيس بسرعة البرق، فالحسابات بالثانية، ولحظة واحدة كفيلة بقتله، وهو لا يريد له الموت بعد، ليسمح له بشهقة واحدة، تعيد له الحياة من جديد، ثم يعيد الكيس مرة أخرى، فيزفر (الشيخ) داخله، ويعود الجلاد لصبّ الماء، ويُعيد، ويُكرر مرة، ومرة، ومرة، كما تجتمع الأكلة إلى قصعتها، اجتمعوا على الضحية، وكلٌ يسلّط سياطه على عضو من أعضائه، يتفنن في إتلافه وإعطابه.

عذابات صاحب التجربة، تختلف عن آلام المستجد، فالمستجد كالطفل الذي يحبو استعدادًا للمشي، و(الشيخ) تعلم المشي، والركض، ودرّب نفسه على الطيران حتى طار، من لحظته الأولى، حتى لحظته الأخيرة وهو يعيش في عالم آخر، تعوّد عليه جيدًا منذ نعومة أظفاره، منذ أن تعلم الصلاة، خمس مرات في اليوم، ثم تعلم، وجرب الخشوع فيها حتى نجح، وبتكبيرها استمتع، وبقرآنها صعد، ومارس تسبيحها ودعائها، حتى أصبح يصل إلى الذروة، ويرى النور الممتد من السماء إلى أرضه، غاص في خياله، وطار حتى رأى ملائكة ربّه تحلّق في السماء وهي تزفّه إلى الجنان، مرحلة من الانخطاف الكامل، كلما زادت السياط كبّر وهلّل، وكلما اشتد الجلاد، دعا وصبر.

آمن (الشيخ) بالبركات والصلوات، ولم يؤمن بالعادات واللعنات، فلا يكاد السامع يميز، إن كان يصرخ آه أم يصدع، الله أكبر وما دونه أصغر، إن كان يقول: لا، أم يقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولا قوة للبشر، حسبي الله ونعم الوكيل، فهو يكفيني ليعينني على عذابي، فمن كفاه الله من النار وقال: يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم، عندما زجّ به النمرود إلى النار، قادر على أن يقول للعذاب كن بردًا وسلامًا على (الشيخ)، من كان الله معه فمن عليه؟!

المسألة تتعلق بالثقة بينك وبين خالقك، تتعلق بإيمانك بخالقك، بالتوكل عليه، بحبك له، بالتزامك أوامره، والبعد عن نواهيه، بالمحاولات والتجارب لتتقرب منه حتى تنجح برفع منسوب إيمانك وتفوز.

عجيب أمر البشر، يحاولون ويحاولون، ويجربون ويجربون القرب من الملوك والأمراء، من السادة والقادة، ولا يحاولون ولا يجربون القرب من ملك _إلا من رحم ربي_ وهو أسهل وأقرب، لا يحتاج إلى تكلفة، ولا إلى واسطة ولا إلى موعد، ولا إلى هندام، ولا إلى مكان، على أية حال يجوز التقرب.

من سمع كلام الله في الجاهلية، قبل الإسلام، قال إن له حلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى، وإنه ليحطّم ما تحته. فماذا ستقول أيهما العالَم اليوم؟! يا من تدعي الحضارة والتقدم والتطور، لا عذر اليوم.

انتهت الجولة مع (الشيخ) لتبدأ جولة أخرى، جولة الهزّ الشديد، الضغط على الأعصاب، والقبض والعصر، أجلسوه على ذلك الكرسي

المهترئ، بلا ظهر يستند إليه، ساعات مقيد القدمين ويداه خلف ظهره حتى أنهكت قواه وخارت من قلّة النوم، ونصف الجلسة، وتعذيب الجولات السابقة، وهم يراقبون المشهد، واحدًا تلو الآخر، يدخلون عليه بين الفينة والأخرى، سؤال واحد، نعرف أن سلاحك مدفون في (وادي القِلْط)، في أي كهف؟ وأية مغارة؟ وفي أي جبل؟ حدّد لنا المكان وسنطلق سراحك، عادوا لخداعهم وكذبهم، أفمّن يدخل هنا يخرج؟!

حتى إذا أدركه الإغماء، دخلوا عليه بدَلْو صفعوه بمائه، وأزالوا الكيس من رأسه، اجتمع عليه العدد من الذئاب، تقدم إليه كبير القطيع وجهًا لوجه، حتى اصطدمت ركبتاه بمقعدة الكرسي، وأنزل كفيه الثقيلتين، لتستقرا فوق كتفي (الشيخ)، ودون سابق إنذار جذبه بقوة إليه وأعاده عشرات المرات، فاهتز اهتزاز ضرّابة الناقوس، ثم التف من خلف (الشيخ) وكرّر الهز حتى فقد (الشيخ) بصره، فلم يعد يرى غير الليل إذا عسعس.

جاء خبير الأعصاب، فقد حانت فرصته وتأخرت جولته، فصب جام غضبه بخبرة متناهية على (الشيخ)، بإصبعين لم يستعمل سواهما، السبابة والإبهام، وضغط على عصب رقبته، ككماشة يتوسطها قضيب حديد رقيق، فيضغط ويترك، و(الشيخ) يتألم، ويستنجد فقط بربه، ويشدّ على أعصابه، والدم يفور في رأسه، والعرق يتصبب من وجنتيه، وليس أمامه إلا التحدي والصمود، وبصره بدأ يعود رويدًا رويدًا.

ثم تنزل كماشة الضبع مرة أخرى إلى العصب الواصل بين الرقبة والكتف، عصب الترقوة، وهو أشد وطأة وأقسى عذابًا، وجولة تتبعها

جولـة، و(الشـيخ) عـلى ضعـف أعضائـه ونحولـة جسـده، يتحمـل ويصـبر، فتنـزل الكمّاشـة إلى عصـب أشـد وأخطـر، عصـب الإبـط، ويتفنـن بالضغـط عليـه، وهـو ناصـبٌ نفسـه خلـف (الشـيخ) مـرة، وأمامـه مـرة، مـرة بيـد، وأخـرى بيديـن، مـرة يمنـة، وأخـرى يـسرة، وثالثـة عـلى الاثنـين معًـا.

أمـا الضغـط والـضرب عـلى أعصـاب وعضـلات الأطـراف المشـدودة، القـدم، الفخـذ، البطّـة، رُسـغ القـدم، الـورك، الفقـرات العنقيـة، وكذلـك جوزة العنـق، الصُـدغ، رأس المعـدة، البطـن، وإدخـال أصابـع اليـد تحـت الأضـلاع السـائبة الكاذبـة، بـين الحجـاب الحاجـز والقفـص الصـدري، كل هـذا يهـون أمـام إدخـال الأصابـع في الحفـرة الواقعـة بـين الرقبـة والكتـف، حتـى تصـل عظـم اللـوح، ليـصرخ (الشـيخ) مكـبرًا بأعـلى صـوت، ويشـهق شـهقةً لا تفرقهـا عـن شـهقة المـوت، فيتركـه ذاك السـادي ويعـود، ويعـود، ويكـرّر، ويكـرّر ويتلـذّذ، ويتلـذّذ حتـى يفقـد (الشـيخ) وعيـه تمامًـا.

هـذه الحفـرة المليئـة بالأعصـاب، الضغـط عليهـا والوخـز مزاحًـا، كعـادة الشـباب كفيـل أن يسـبّب ألمًـا شـديدًا يسـتمر أيامًـا، فـما بالـك لـو كان الضغـط مقصـودًا، فهـو كفيـل أن يسـبب لـه شـللًا تامًـا، وإن نجـا مـن ذلـك سـيبقى يتألم لسـنوات دون أن يجـد علاجًـا يشـفي أو يخفّـف، غـير المسـكّنات.

لا تسـتطيع أن تحـدّد أي جولـة أخـف وأيهـا أثقـل، هـذه أم تلـك، لكـن ممـا لا شـك فيـه أن كل جولـة هـي أسـوأ مـن الأخـرى، كلـما دخلـت جولـةٌ لعنـت أختهـا، حتـى إذا ادَّاركـت جميعًـا، ازداد العـذاب ضعفًـا عـلى ضعـف.

16

المشبحاه (الميلودراما)

اجتمع القوم، يلمزون، يغمزون، يتناجون، بالإثم والعدوان، يخططّون، يدبّرون لإرسال (يوسف) إلى أكبر مصيدة أعدّوها لكل فلسطيني دخل حفائرهم؛ ليسقط في بئر عميقة سقط فيها سواه، الأعظم من الأسرى، ليُدخلوه إلى أضخم مسرح عرفه التاريخ، للتمثيل عليه مباشرة، كمسرحية لا تشبهها مسرحية، الأدوار متقنة، لا مجال للخطأ أو إعادة المشهد.

اختير الممثلون بعناية فائقة، لهم الحرية في ارتجال المشاهد، العبرة أن تكون النتيجة كما يريد الذئب الأعظم لتلتف الشّباك وتحكم قبضتها على الضحايا، ويُوضع الطعم تلو الطعم، والشّباك تلو الشّباك، حتى تقاد الضحية إلى البئر الذي ستقام على فوهته المسرحية، وستشارك الضحية في أحد الأدوار، بل وستأخذ دور البطولة بعد أن تبتلع الطعم وتنطلي عليها الحيلة حتى تسقط في أعماق بئر هي أعمق من بئر سيدنا (يوسف) عليه السلام حتى يصل إلى الأرض السابعة.

لم يستغرق اللقاء زمنًا طويلًا مع (يوسف)، وهو غارق في أحداث قصته، مع صديقه عماد والمحقق ينظر إلى صندوق حاسوبه، ويطقطق بأزرار لوحة مفاتيحه تارة، وبقلمه تارة أخرى، ويشاهد الكلمات، ويضغط على زر الطباعة، لتخرج الأوراق تباعًا، بلغته العبرية المركّبة من اللغة القديمة، وخليط من العربية الفصيحة، والإنجليزية وقليل من الروسية، وغيرها، ففي كل عام يدخل عليها بضعة آلاف من الكلمات الجديدة.

لا يفهم (يوسف) ما المقصود، وما الذي يدور.

يسأله المحقق: بتعرف تقرا عبري؟

- لاء.

- طيب، هذه الأوراق خبيبي مكتوب فيها اسمي واسمك، والتاريخ باليوم والساعة، واللّي قلتلنا إيَّاه

- ------- !!

- حسب معلوماتنا إنتا تبع تنزيم مخرّب وهيْ اسم التنظيم كتبته، وإنك كنت مع صاحبك (عماد أبو عيشة) وكُنت بتشارك في عمل الطلاب في مجلس الطلبة يعني، وكمان بتطلع في المسيرات والمظاهرات، بس ضل شغلة خبيبي، مين كان مسئولك اللّي نزّمك (أبو الحسن) واللّا (أبو مجاهد)؟

- أبو مجاهد وأبو الحسن.

- كويس خبيبي، ومين كان معكم في الاجتماعات في الجمعية؟

- محمد، حسن، صلاح، مجدي، عامر، علي، عليان.

- مين هذول؟ شو عيلتهم خبيبي؟ مين أبوهم؟ وين ساكنين؟

- شو عرّفني، مش إنتو بتعرفوا كل اشي؟!

- خبيبي إنتا واخد كذّاب.

- ------- !!

- طيب ماشي، امضي هون، تحت.

القانون لا يحمي المغفلين، والجاهل عدو نفسه، ظل (يوسف) صامتًا، لكن صمته كان إقرارًا بما قال المحقق، ثم وقَّع أسفل الورقة، وهذه إدانة أخرى، وهو لا يعرف المكتوب بالضبط وهذا غباء آخر.

ربما ظل صامتًا ظنًا منه أنه لم يفعل شيئًا ذا قيمة، فالكل يفعل ما فعل وأكثر بكثير؛ لأنه يجهل أن مجرد الانتماء إلى حزب أو تنظيم، هذا

يعني الحكم عليه من سنة إلى ثلاث سنوات، ولا يدري أن العمل الطلابي، والمنشورات، والمسيرات أيضًا، من سنة إلى ثلاث، وأكثر منه رجم الحجارة، والسلاح، والزجاجات الحارقة، حتى تجمع لنفسك آخر النهار من خمس إلى عشر سنوات قابلة للزيادة.

الصمت عند المخابرات (الشّاباك) يفيد المتهم على ألا يكون الصمت إقرارًا، فإن سألك وقلت: لا، وصمتَّ نجوت، وإن سألك: وأجاب نفسه وسمعت وسكتّ هلكت، أما الصمت عند الشرطة، فيعتبر إدانة، ولا يكفي أن تقول: لا، فيجب أن تأتي بالدليل والبرهان، وإن لم تأتِ به وكان الدليل في يد محقق الشرطة فأنت مدان لا محال، مثل الإدانة عند (الشاباك) على اعتراف الغير حسب قانون (تامير).

أمّا الكارثة هي مساعدة الاستشهادي، أو التخطيط لعملية عسكرية دون المشاركة باليد، فهنا الدَّال على الشيء كفاعله، والراضي والمؤيد، والداعم ولو بشق كلمة، كالفاعل تمامًا.

إذا أرشدت مقاومًا إلى الطريق، وقَتَلَ أحد قطاع طرقهم، وانتقل الفاعل إلى رحمته تعالى، والمقتول إلى جحيمه تعالى، ووصلت المعلومة فسيتم مصادرة المرشد حتى إلقاء القبض عليه ودفنه في هذه المدافن، وستحكم عليه المحكمة بالسجن المؤبد مدى الحياة غير الغرامات المالية.

وأكثر من ذلك، فلو رأى أحدنا رؤيا في منامه بعمل عسكري هنا أو هناك، وشاء الله أن تتحقق الرؤيا، وقُتل أحد اللصوص في مكان يبعد عن الرائي ألف ميل، ووصلت المعلومة، كان سواء هو والمرشد والمساعد

والفاعل، حقيقة لا خيالًا، واقعًا لا أحلامًا، يحاسبون على المضغة والجرعة، والنومة، والقعدة، والحقيقة، والخيال، والحلم والعلم سواء.

في مدينة (رام الله) ومن قبلها في مخيم (البريج) اجتمع العامّة على جنود الاحتلال، فقتلوهم تحت الضرب، فتم القبض على كل من شارك، وحُكم على كل واحد منهم مؤبدًا مدى الحياة، وكانوا عشرات الشباب، رغم أن القانون الدولي العالمي لا يعدم أحدًا، ولا يحمل القضية أحدًا، بل يسجن هذا على الكلمة، وذاك على الركلة، والآخر على الضربة، وتعرف هذه بعملية (Lynch) حسب القانون الدولي، أي إعدام دون محاكمة قانونية.

اعتقد (يوسف) أن الأمر طبيعي، وأيام وسيخرج من هذه الحفائر، وهكذا أقنعه المحتال، ولأنه يجهل مجريات التحقيقات، وخباياها، صدّق، وتحت الضغط النفسي الذي مرّ به طوال أكثر من أسبوعين لم يعد يفكر بشكل سليم، وعقله أقرب للمتعطل منه إلى المشتغل.

دخل ضابط شرطة بلباسه المدني، حليق اللحية والشارب، قصير القامة، كبير سن، قليل قدر، منتفخ الأوداج، لحيم، يلثغ كما يلثغ صاحبه، المكر واضح وضوح الشمس في عينيه، مستهتر لا مبالٍ، استلم الأوراق من المحقق، وفك قيد (يوسف) من الأرض، وحلّ قيد يديه من المقعد، وحمل السلاسل بيد، وبالأخرى الأوراق.

وقف (يوسف) الذي شعر بالحرية، لأول مرة يشعر أنه طليق أصبح، شعر بالسعادة وهو يسير مع ضابط الشرطة _رغم قصر المسافة_

بلا قيد، والدم يسري في عروقه دون موانع أو حواجز، والضابط يتحدث إليه، ويسأل عن اسمه وحاله، ويطمئنه!!

- ما تقلق قصتك زغيرة، وإسَّه هيك خلصت التحقيق، بس أنا ما فهمت شو يعني مشوار؟ يعني مثلًا إذا بدّك تروح على البنك، بتقول بدي أصل مشوار؟

- آه، بالزبط.

- أها فهمت، طيّب إسّه إخنا بدنا نعمل إلك لائحة اتهام بنود يعني، من هذي الأوراق اللي كانت عند المحقق.

سار الاثنان معًا، غادرا غرفة التحقيق، ونزلا درجاتها الثلاث، وتقدما في الممر، و(يوسف) ينظر يمنة ويسرة إلى الأبواب الموصدة، وسلالمها القصيرة، وأزهار الزينة، والأشجار الصناعية الصغيرة، المقيدين، الراسغين، المشبوحين، المعلّقين أمام كل باب، وبجوار كل درج، وتذكر نفسه في الأيام الماضية، وهو جالس مكانهم تلك الساعات ينتظر قرقعة المفاتيح، السلاسل، والرائحة النفّاثة من حوله.

الضابط يواصل المسير، يحادث (يوسف) ليشعره بالهدوء، والراحة، والأمان، وينتقلان من هذه الجهة إلى الجهة المقابلة، ويصعدان الدرجات المعدودة، فيجذب الضابط مفتاحه من على خاصرته، ويزج بأنفه الرفيع القصير وسط الباب الخشبي، فيدور دورته، ليكشف عن غرفة لا تختلف كثيرًا عن سابقتها، يدخلان، يتقدمان، يجلس (يوسف) على مقعد مريح

نوعًا ما، بظهر من الإسفنج والجلد الأسود، يجلس الضابط على كرسي مكتبه الذي يدور به حيث شاء.

يقرأ الضابط أوراق المحقق، و(يوسف) كالأطرش في الزّفة، ويحولها إلى ثلاثة بنود، الأول: الانتماء إلى حزب محظور، أي عضوية في منظمة غير مصّرح بها، مخالفة حسب التعديل (85) (أ) (1) لأنظمة الدفاع زمن الطوارئ للعام 1945م.

البند الثاني: محاولة التآمر والتسبب بالموت مع سبق الإصرار والترصد، مخالفة حسب المادة (50) (أ) حسب تعليمات الأمن والدفاع عام 1970م وحسب المواد 14 – 19 لأمر العمل بالمسئولية العامة عن المخالفة (منطقة قطاع غزة) رقم (162) لعام 1968م.

البند الثالث: تأدية خدمات لصالح منظّمة غير مصرح بها، مخالفة حسب التعديل (85) (1) (ج) لأنظمة الدفاع زمن الطوارئ لعام 1945م، وتحت كل بند يشرح في بضعة أسطر ماهية المخالفة وتفاصيلها.

– (يوسف) خبيبي، إخنا هيك خلّصنا، وهذي اسمها لائحة الاتهام، المحامي تبعك بترجمها وأنا قريت لك المكتوب وفهمّتك اياه، يعني خلص التحقيق معك، وبعد شوي بتطلع على السجن.

– خلص يعني ما ضل إشي؟

– آه.

- وكتيش بأطلع؟ بعد أكم يوم يعني؟

- ما بعرف بالزبط، حسب الفراغات في السجون.

- بس ضايل عليك التّوقيع هون _وأشار إلى أسفل الورقة_ وكمان بدنا البَصَمات لإديك ورجليك، وصوره جديدة، مع رقمك، أما الـ (DNA) بعدين.

- طيب، وبعدين شو بصير؟!

- زي ما قلت لك بتطلع السجن، وبتزور أهلك كمان! وبتشوف المحامي! ويزورك الصليب!

- ماشي، حسب علمك وخبرتك أكم سنة بأحكم على اللي في الورق؟

- ما بعرف، إنت ما تفكر في الموضوع، وبعدين عملية السلام شغّالة، والمفاوضات ماشية وراح يعلنوا عن الجولة الفلسطينية، وكلكوا حتروحوا لبيوتكوا.

- المفروض أن التحقيق قد انتهى وحصل اللص على مبتغاه، وقّع (يوسف) وغمس كفه بالحبر، ودمغه على الورق، وعاد إلى زنزانته يمسح يديه ويفكر بالإفراج وبعملية السلام!

لولا فُسحة الأمل، لمات الكثير، ولجُنّ العديد، وإن كانت الآمال إشاعات وأخبارًا كاذبة وأحلام المنامات، فالغريق يتعلّق بحبال الهواء،

والمحتال يحرص أشد الحرص على نشر المعلومات المخادعة، لمردودها الإيجابي على تحصيل المعلومة من المتهم، ففي كل بقاع الأرض تنتشر أخبار تتعلق عليها الآمال.

في فلسطين تنتشر أخبار الإفراجات بعملية السلام، لتسيطر الفكرة على عقل المعتقل في أقبية التحقيق، فيعترف ظنًا منه أنه سيُفرج عنه، ونسى أو تجاهل أو غفل أو واسى نفسه وأوهمها _أن هناك الآلاف مثله_، وكذلك تنتشر أخبار صفقات التبادل بين الاحتلال والحزب الفلاني، وإن لم يوجد أسرى من قطّاع الطرق لدى المقاومة، فيُشاع أن المحاكم ستعتمد قانون (الشليشي) فمن يقضِ ثلثي فترة محكوميته، يُطلق سراحه.

أما بلاد الملوك، فتنتشر أخبار العفو الملكي يوم العيد، أو يوم عيد ميلاد جلالته! أو ميلاد الأمير، أو الأميرة وفي بلاد الرؤساء كذلك تنتشر إشاعات الإفراجات لحسني السير والسلوك، أو عفو رئاسي بمناسبة المولود الجديد أو الحفيد أو زواج الابن، إنه الأمل إن فُقِد فسيخترعه الإنسان اختراعًا؛ ليعيش على الأمل، والغريق يتشبّث بقشّه، وهو يعلم أنها لا تغني ولا تسمن من جوع.

السواد الأعظم يسير، يتابع حلقات هذا المسلسل، ومشاهد هذا الفيلم المتتالية المتتابعة، كل شخص له مسلسله وفيلمه، وكلها متشابهة، هنا الميلودراما، التمثيل المبالغ في تعبيره العاطفي، والانفعالات والحركات، بالكاد تختلف في مشهد هنا أو مشهد هناك في الأسماء، وأشكال الشخصيات،

بداية من المشهد، والحلقة الأولى عند الاعتقال، إلى المشهد الأخير، ونهاية الحلقة والمسلسل.

(حسن) و(مراد) كانت حلقات مسلسلهما لا تختلف عن مسلسل (يوسف) والعشرات الموجودين في نفس اللحظة معه في هذه المدافن، دون أن يعرف أحدهم الآخر، لا يختلف إلا في نقطة البدء عند الاعتقال، والطريق التي ساروا بها، ومشهد التعذيب ضربًا، وركلًا، الإصابات، رقم القبور، الأرقام المتسلسلة التي حملوها، أسماء اللصوص الذين احتالوا عليهم، عدد أيام عزلهم، مقدرة كل واحد منهم على الصبر والتحمل، المشاعر، الخوف، القلق، التوتر، القبول والرفض، الجوع والعطش، الصلاة وعدمها، الدعاء وعدمه، فهو اختلاف البشر، كما خلقهم ربهم، أفلام هندية تمامًا، نفس السيناريو والقصة والعقدة والحل مع اختلاف الشخصيات.

كجداول الماء، تتساقط من القمم، لتصبّ في القعر، مكونةً نهرًا يسير باتجاه المصب، وفي ذاك المكان الفسيح تهاجمك الحيتان وأسماك القرش حتى لا تُبقي منك إلا هيكلًا عظيمًا لا فائدة منه.

17

تَرَانْس سِيبَارِيان (أَطْوَل سِكة حَدِيد)

جاء اليوم الموعود، بعد ساعات من إبلاغ (يوسف) أن التحقيق قد انتهى وأنه سيخرج إلى غرف السجن وأقسامه، ذاك المحقق قال غدًا، ولم يأتِ الغد إلا بعد أكثر من أسبوع، وتتالت الأيام حتى وصلت الأسبوعين، وهذا الشرطي قال غدًا عندما تكون هناك فراغات ستخرج، فأتى الغد بعد ساعات، نادى المنادي (يوسف)؟، رد (يوسف): آه، نعم.

خرج (يوسف) من لحده كالمعتاد، بعد أن أصبح يحفظ كل خطوة يخطوها، فعجلة الزمن هنا تدور كما يدور الحمار حول الرحى، فيبدأ من نقطة ويعود إليها، ثم تبدأ وتعود، بحيث لو شذّت عن الخط المرسوم قيْد أنملة فلن يكون الشذوذ إلا بمقدار ذرة.

حياة رتيبة، يمكن ملاحظة الشذوذ مهما كان متناهي الصغر بسهولة، من رتابة الأبواب إلى قرقعة المفاتيح، ولبس الغمامة، القيود، السير كالأعمى الراسف، يمنةً، يسرةً، درج يصعد أو ينزل، إلى الأمام سر، توقف، إلى اليسار در، توقف، فك القيد، التأكد من الهويّة، استلام الأمانات المسموحة، تسليم الأمانات غير المسموحة إلى الحارس، ترحيل.

دخل (يوسف) إلى غرفة التفتيش، كالتي دخلها أول مرة، خرج فردًا إلى مركبة (GMC)، فتحت بابها الخلفي كالشّباك على مصراعيه، باب آخر في الداخل، مصفّح بالحديد، مليء بالثقوب المرصوصة كالشّباك، أوسطه قفل وأعلاه آخر.

جذبه السجان إليه، وانسحب للخلف نازلًا من المركبة، تقدّم (يوسف) فرفع قدمه إلى الدرجة الأولى، والأخرى بقيت أرضًا، والسلاسل تصلهما ببعضهما، تشبّث بيديه المكبّلتين بالحديد، بكرسي إسفنجي، القابع بين البابين، محني الظهر، ألحق رجله الثانية بالأولى، مازال على انحناءته، تقدّم حتى جلس على كرسي عريض عن يمينه، أسند ظهره إلى ظهره ومدّ قدميه إلى أخيه الذي يقابله.

صعد الحارس خلفه، جلس على كرسيه الإسفنجي، جذب الباب الفاصل بينه وبين (يوسف) ووضع القفل مكانه وأحكم إغلاقه ثم أغلق على نفسه الباب الخارجي، وأحكم حارس آخر إغلاقه عليهما من الخارج.

دار محرك المركبة، كما دارت مروحة التكييف، وتقدمت حتى بوابة السجن، وفوق الحفرة، كحفرة الميكانيكي تمامًا، توقفت المركبة ونزل حراسها، وخرج حراس البوابة من غرفة مراقبتهم، نزل أحدهم إلى الحفرة المضاءة بأنابيب النيون، ثم دار حول المركبة ونظر إلى مرآة ضخمة أمامه لتكشف له سقف المركبة، ثم فتح أبواب المركبة، وفحص تحت كرسي السائق، وكرسي (يوسف)، والحارس الخلفي، ثم سلّم الحراس سلاحهم، وصعدوا المركبة وأغلقوا أبوابها، وفتح لهم الحارس البوابة الأمامية الفولاذية والتي تعمل على شكل مزلاج.

خرجت المركبة إلى ساحة السجن الأمامية، الخارجية، موقف سيارات المحققّين والحراس عن يمينه، ومحكمة صغيرة كبيت الصفيح عن شماله، السجن من خلفه، وقضبان حديدية تصطف بجوار بعضهما بشكل عمودي، تشكّل بوابة السجن الرئيسية، تتقدم المركبة، فيفتح حارس البوابة بوابته، فتلفظ بالعربة إلى الشارع الرئيسي، تلتف يمنة ليبقى السجن على يمين المركبة، وقبالته على الشارع الآخر مبنى سوق تجاري ضخم.

أسند (يوسف) رأسه إلى ظهر الكرسي ليرى شيئًا من تحت الغمامة، فيشاهد عن يساره الحارس من خلف الباب الحديدي الفاصل بينهما،

ويخترق زجاج الباب الثاني ليرى المركبات وشاحنات اللصوص المارقين من خلفه، من أمامه، ومن خلف ظهره، يراقب هنا وهناك، ليرى جمال الطبيعة كلما أسرعت المركبة، وروعة المسروقات، جبالها، أحراجها، وأناقة طرقها ومبانيها، وزينتها، وبهاءها، فيستمتع بهذا الجمال الخلّاب، والمركبة تواصل طريقها حتى سقطت الغمامة، واستقرت في رقبته، فصعدوا بالمركبة من فوق الجسور، وأخرى كانت هي فوقهم، واخترقوا الأنفاق القصيرة والطويلة، المعتمة والمضاءة.

مرّت الدقائق وانقضت، واقتربت عقارب الساعة _تقديرًا_ أن تتجاوز الساعة الأولى، وهو يفكر في هذه الطبيعة التي سرقها اللص ومازال يأكل من خيراتها، وكأنها أصبحت ملكًا شرعيًا، هذه الطبيعة التي قاتل الثوار من أجلها، ودفنوا في تلك القبور لاستعادتها، ومازالوا حجر عثرة أمام هذا اللص الطامع الذي لا يكف عن التفكير والتخطيط؛ لنهب والسيطرة على ما تبقى، وما زال ينظر إلى البلاد العربية المجاورة جمعاء، والعرب لا يفكرون إلا في إرضائه، والصلح معه، لعمري إنها لمفارقة عجيبة، غريبة في ذا الزمان، أفراد بصدور عارية تقاوم دولة، ودُول مجتمعة تتودّد للص يدعي الحق.

اقتربت المركبة من المدينة (مدينة القدس)، عاصمة فلسطين الأبدية، المسلوبة، المغتصبة، المصادرة، المدنَّسة، أولى القبلتين، فيستمتع بشوارعها التي لم يرها في أحلامه، وأبنيتها الأثرية التي كان يقرأ عنها، أناسها الطيبين الذين لطالما سمع عنهم، دكاكينها، متاجرها القديمة التي لطالما اشترت له جدّته الهدايا منها، الطمأنينة والسكينة التي نزلت على أنبياء الله حين صلى

بهم رسول الإسلام جماعة في رحلة الإسراء والمعراج، سكينة أقرّ بها كل من زار المدينة من غير المسلمين.

تسير المركبة ببطء وسط معمعة المارّة والمركبات، من (عسقلان) إلى (القدس) مضت الساعة والنصف تقريبًا قبل أن تدور المركبة يسارًا، ودقائق معدودة وتلتف يسرة مرة أخرى، ثم يمنة مقتحمة بوابة ضخمة قديمة يعلوها قوس من الحجر الأثري، فتتوقف في ساحة مستطيلة الشكل فسيحة، مكتظة بالمركبات الخاصة والشرطية، مسلخ (المسكوبية)، المبنى الروسي القديم الذي استأجره اللص من روسيا.

اليوم انتهى العقد بينهما، فأنشأ اللص بجواره مبنى ضخمًا شاهقًا، يتجاوز عشر طبقات فوق بعضها بعضًا، ناطحة سحاب، لكنها بطريقة عكسيّة، على الطريقة اليابانية، تحت الأرض دَرَكات بدل أن تكون درجات، مركزًا ومسلخًا جديًا بطريقة حديثة، تحتوي على عشرات المكاتب، وعدد من الجبّانات في جوفها عشرات الحفائر، والمدافن، وأقسام الشرطة، والبصمات، والإدارة المدنية، والنساء، والأطفال، والتحقيق، والقبور، والمخابرات، كلٌ له جناح، وجناح خاص للعملاء_الجواسيس_ المعروفين باسم (العصافير).

هبط (يوسف) من المركبة، أزالوا غمامته، اصطحبه الحراس يجرون قيوده من بين المركبات، وصل إلى باب حديدي صغير، ضغط أحدهم على زره السحري، فكشف لهم عن درج طويل، قطعة واحدة، شديد الانحدار، يتجاوز العشرين درجة، بالكاد عرضه يتسع لاثنين، صعد بصعوبة، وببطء

أشد، يحذر من السلاسل أن تحز قدميه، دار يمنة إلى مبنى قديم، وسط معمعة من البشر، عرب، يهود، يتزاحمون أمام شُبّاك من الزجاج الشّفاف، مفتوح أسفله، يفصل بينهم وبين مكاتب أفراد الشرطة الذين يتابعون حواسيبهم وهواتفهم لإنجاز معاملات الوافدين.

تقدم أحد الحراس إلى أحد الشبابيك، وزجّ بملف (يوسف) الأصفر إلى الشرطي، نظر، قلّب، فحص، وقّع، ختم، أعاد الملف، ثم تقدّم مع (يوسف) إلى نهاية الزقاق، سلّم الملف إلى مكتب صغير مستقل، ثم يمنة حتى آخر الممر، ثم يسرة توقفوا جميعًا.

خرج إليها متحدث بالعربية، حرّرَا قيوده، استلمه العربي، أدخله إلى أول غرفة في هذا الجناح، الذي لم ير (يوسف) فيه أكثر من غرفتين أو ثلاث، المكان مكتظ بالأبواب من جميع الاتجاهات، بين كل ممر وممر، بين كل لفّة ولفّة، دورة ودورة، جناح وجناح، قسم وقسم، زقاق وزقاق، وجود الأبواب هنا وهناك فرض عين، مع اختلاف اشكالها وأحجامها وألوانها، لتمارس دوْرها الذي صنعت من أجله.

غادر الحارسان، و(يوسف) مازال واقفًا، يستكشف ما يدور من حوله، قاطع العربي الغريب خلوته، طويل القامة، معتدل الوزن، حليق اللحية والشارب، كأنه عائد من صالون حلاقة، تفُوح منه رائحة العطر، سلّم، ألقى التحيَّة وعرّف عن نفسه بكنيته (أبو الصّائب) وأدخل (يوسف) إلى الغرفة وانصرف.

هنا (يوسف) يسافر من مقبرة (عسقلان) إلى المسلخ (المسكوبية)، وعمّه هناك يسافر من غزة إلى مصر إلى الصين، يجول البلاد متاجرًا بأمواله، متنزها بين جمال الكون والطبيعة، وهو في قمة السعادة والحرية.

إخوانه وأخواته يخرجون في كل صباح إلى مدارسهم، وجامعاتهم، ورحلاتهم المدرسية، والأب يخرج إلى عمله في كل صباح، والأم تستيقظ قبل الجميع، تُرجّل شعر بناتها، وتعد إفطارها، وتودع الجميع، وتواصل أعمال بيتها.

المركبات، العربات، السيارات، الشاحنات، الإنس، الجن، الحيوان، البشر، الحجر، الشجر، البحر، النهر، الشمس والقمر، الليل والنهار، الكبير والصغير، كلٌ في فلك يسبحون، ويدور كما كتب الله لها أن تدور، هذا يعقب هذا، وذاك يلج في ذاك، هؤلاء يظهرون، وهؤلاء يغيبون، الصغار يكبرون، وقطعًا وحتمًا لا ينسون، والكبار يموتون، والموتى يُحاسبون، وإلى الخلود في جنة أو نار.

إلا الراسغين، (يوسف) ومن معه، ومن هم على شاكلته، فلا هم بالأموات فتعزّيهم، ولا هم بالأحياء فتبارك لهم، ولا هم بالصغار ليكبروا، ولا بالكبار ليموتوا، فهم في عالم آخر من تلك العوالم التي خلقها الله، التي يعرف الإنسان بعضها ويجهل أكثرها، من عالم الإنس وعالم الجن والحيوان والنبات والبحار، أو عالم الغيب وعالم الشهادة، أو عالم الذّر، والتراب، والأصلاب، والأرحام، والدنيا، والبرزخ، والبعث، والحشر.

طالت الطريق، كأنه على متن قطار يسير على أطول سكة حديد في العالم، سكّة حديد «ترانس سيباريان»، التي تقترب من العشرة آلاف كيلو متر في القطاع الروسي لوحده، متجاوزة المدن والقرى، المزارع والحقول، وكذلك المناطق الزمنية، فتتجاوز ما يزيد عن سبع مناطق زمنية مختلفة، كما يتجاوز (يوسف) مدنه وقراه المسلوبة، المحتلّة، كما يشعر أنه مرّ عن سبعة آلاف منطقة زمنية، هكذا يفعل الانتظار للمجهول الذي ربما يخرج في أي لحظة، إنه الانتظـــــار.

18

صَدِيقٌ فِي ثِيَابِ عَدُوٍ

حُفر تسترها أغصان الأشجار، فخاخ تُدفن تحت الرمال، شِبَاك شفّافة تُنصب في الهواء، أناس تغفل وتسقط، وأناس تغوص وتغرق، أيام تمضي وتمر بحلْوها ومُرها، بسعادتها وتعاستها، بأفراحها وأتراحها، بعسلها وبصلها، بفومها وقثَّائها، بشهْدها وعلقمها، ذهب الأبيض وانقرض وبقي السواد واستقر.

في (عسقلان) أنهى (مراد) بعضًا من التحقيق، وكان يظنّه كلّه، وعانى ما عانى من آلام الانتظار، حتى خرج بمركبة الـ (GMC) بعد التفتيشات الرتيبة، متوجّهًا إلى مدينة (بئر سبع) مُجمّع مدافن (إيشل) ويشمل على عدّة جبّانات: إيشل، ديكل، أوهلى كيدار، إيله، على بعد 45 دقيقة، عن يمينه المزارع والحدائق، حتى يرى أبراج غزة السكنية تلوح له قبل الأفق، وعن يساره الكروم والورود، وبيَّارات الحمضيات، حتى يرى ناطحات سحاب المدن المحتلة من اللد والرملة وتل الربيع، حتى يقتحم زحمة المدينة، متجاوزًا المفترق الأول بإشاراته الضوئية، والمباني والمساكن والمحالّ التجارية، ثم المفترق الثاني، ثم الثالث بإشارته المرورية، لا يفصل بين الواحد والآخر إلا اليسير، بالكاد تُسرع حتى تتوقف، ليطل على سوق الخضار الكبير، ثم مقبرة المدينة العربية، التي يلحدون موتاهم في ترابهم، ثم تجمع المولدات الكهربائية على الجهة المقابلة، وأبنية مراكز التسوق التجارية، ومواقف السيارات أسفلها، ثم موقف باصات الجنوب المخصصّ غالبه لنقل آلاف الجنود صبيحة كل يوم إلى قواعدهم العسكرية البرية والجوية، وتزداد معمعته يوم الأحد.

يترك المدينة من خلفه، عن يمينه وشماله، تستمر في حياتها المعتادة، ليصل إلى بداية بيداء النقب، فلا يقتحم منها إلا أقلّ من خمس دقائق، وأمام إشارة أخرى، يتوقف ثم يدور يسرة، في طريق أسفلتي متعرج، عن يمينه بيوت الصفيح والخيام وبيوت الشعر، الأغنام في حظائرها، والنوق في مرابضها، والبدو يتنقلون بين هذا وذاك، وعن يساره المدينة التي تركها خلفه، يفصل بينها وبينه ساحة يتوسطها مبنى

ضخـم، يعلـوه الصفيـح، يبـدو مصنعًـا أو معمـلًا، يليـه المنطقـة الصناعيـة.

تتقـدم المركبـة مسرعـة قافـزة مـن فـوق سكّة حديـد القطـار التجـاري، يخـرج حـارس مـن ثكنتـه العسـكرية، يفتـح بوابتـه القديمـة التـي لا تتجـاوز عامـودًا مـن الفـولاذ منبطحًـا قريبًـا مـن الأرض، عـادة يتركـه واقفًـا، ليسـمح للمركبـة بدخـول حـدود السـجن.

يتقـدم بنفـس الطريـق التـي تتوسـطها جزيـرة عـلى شـكل دائـرة، مركزهـا نخلـة، أنصـاف أقطارهـا مثلثـة الشـكل، واحـد بالعشـب، وأخـر بالأحجـار، وثالـث بالعلـم، لتشـكل لوحـة مزخرفـة، عـن يمينهـا شـارع معبـد يـؤدي إلى سـجن (إيلـه) الجديـد، تتقـدم المركبـة تـدور بنصـف دائـرة، ثـم تعتـدل لتواصـل طريقهـا المسـتقيمة القصـيرة، عـن يمينهـا رصيـف وموقـف للمركبـات تصطـف فيـه عـشرات المركبـات حتـى جـدار السـجن، وعـن يسـارها شِـبَاك قديمـة، وأرض صحراويـة شـبه مسـتوية، تشـكل سـاحة تفصـل بـين السـجن والمدينـة.

تلتـف المركبـة يمنـة لتقـف أمـام بوابـة شـاهقة، نسـخة أصليـة عـن أخواتهـا في كل الجبَّانـات تعلوهـا وعـن جوانبهـا كاميـرات المراقبـة، عـن يمينهـا موقـف السـيارات ذاك، وعـن يسـارها مبنـى رخـام خـاص بالأهلـين الزائريـن أبنـاءهـم، يسـلّمون أوراقهـم، يُفتّشـون تفتيشًـا دقيقًـا، ثـم إلى نفـق قصـير، يتعـذب فيـه كبـار السـن، ينزلـون، يمشـون قليـلًا، ثـم يصعـدون سُـلّمَة شـديد الانحـدار، ثـم يتفرقـون حسـب أوامـر الحـراس إلى قاعـات الزيـارة.

في ظهـر المركبـة تصبـح المدينـة عـلى بعـد مئـات الأمتـار، وفي صدرهـا البوابـة الضخمـة تفتـح فاهـا، تبتلـع المركبـة، تغلـق عليهـا، تقـف فـوق الحفـرة،

ينـزل الحـراس، تفتيـش كأخيـه في (عسـقلان) مـن كل الجوانـب، تسـليم السـلاح، ثـم تُفتـح البوابـة الأماميـة، الثانيـة، تدخـل المركبـة إلى المقبـرة، خلفهـا بوابتـان مغلقتـان، يمينهـا حديقـة آخرهـا مبنى مـن حجر الرخـام، يمثّـل مطعمًا، ومركـزًا لقيـادة المنطقـة الجنوبيـة، وبعـض الأجنحـة المختلفـة، أمـام المركبـة شـارع، عـلى بعـد عـشرات الأمتـار يمنـة مبنـى سـجن (ديـكل) يقابلـه يسـار الشـارع مبنـى سـجن (أوهليكيـدار) وكل مبنـى يمثـل عـددًا مـن الطبقـات، الأقسـام، قاعـات الانتظـار، غـرف التفتيـش وأجهزتـه، العيـادات، مخـازن، وبـين هـذه الأبنيـة، محكمـة، مخبـز، مطبـخ، مصانـع، معامـل، وورش مختلفـة، يعمـل بهـا السّـجناء الجنائيـين مـن أبنـاء (الدولـة).

لا تتقـدم المركبـة إلى هنـاك، بـل تـدور يسـارًا، يسـارها تلـك البوابـة، ثـم أسـلاك شـائكة إلكترونيـة، خلفهـا كلاب الحراسـة، خلفهـا الجـدار الإسـمنتي الـذي تعلـوه أيضًـا الأسـلاك الإلكترونيـة، تعلوهـا أسـلاك شـائكة حلزونيـة، وكل بضعـة أمتـار بـرج مراقبـة أعـلى السـور، لتشـكّل جميعًـا خطـوط دفـاع وحمايـة ثلاثيـة متتاليـة، أسـلاك، كلاب، جـدار، بالإضافـة إلى الطريـق التـي تسـير فيهـا مركبـات ودوريـات الحراسـة حـول السـجن باسـتمرار.

عـن يمـين المركبـة مبنـى سـجن (ايشـل) بوابتـه الحديديـة البيضـاء التـي تدخـل فيهـا أحيانًـا حافـلات الترحيـلات، بجوارهـا بـاب لا يُشـبه أبـواب السـجون، تصعـد ثـلاث درجـات وتدخـل صالـة صغـيرة، كـما تدخـل إلى أي مؤسسَّـة، أو مستشـفى، أو مبنـى تجـاري فيـه عيـادة لسـجون الجنـوب، سـواء دخـل القـادم الجديـد مـن هنـا، أو مـن البوابـة العتيقـة عتـق هـذا السـجن، فـإلى التفتيـش مبـاشرة.

نـزل (مـراد) مـن المركبـة، عـاد إلى قصـة التفتيشـات، ومـن ردهـة إلى ردهـة، ومـن زقـاق إلى آخـر، ومـن بـاب إلى أبـواب، ومـن ممـر إلى ممـر، حتـى آخـر البدايـة، ليلـج إلى قسـم صغـير، غرفتـين إلى أربـع متقابـلات، بينهـما ممـر عريـض نهايتـه بـاب يفتـح إلى سـاحة صغـيرة (فـوره) _يسـمونها_ مسـقوفة بقضبـان الحديـد المختلفـة، الدقيقـة، الغليظـة، الأسـلاك المسـطّحة الشـائكة الحلزونيـة، الكاميرات، لتشـكل سـماء ثامنـة، يتكـئ البعـض إلى جدرانهـا تحـت شـمس الصبـاح، أو ظـل المسـاء، يمـشي البعـض ليحافـظ عـلى نشـاط دورتـه الدمويـة، وآخـرون يمارسـون الرياضـة، ومنـشر للملابـس لتجـف، وتغادرهـا رائحـة العفونـة والرطوبـة، حديـث هـذا مـع ذاك لإعـادة ذكريـات المـاضي القريـب، الـذي حـدث في التحقيـق، أكثـر مـن ذكريـات المـاضي البعيـد، وحيـاة الحريـة التـي لا يعـرف عنهـا شـيئًا غـير نفسـك.

لم يكـن (مـراد) وحيـدًا في رحلتـه القصـيرة هـذه، بـل كان يصطحبـه كبير سـن ملتـحٍ، شـيطان عـلى هيئـة شـيخ، منافـق كاذب عـلى هيئـة مؤمـن صـادق، لم تكـن الغمامـة عـلى رأس أحدهـم، ليتمكنـا مـن رؤيـة بعضهـما البعـض، ويتحدثا حسـب خطـة إبليـس، فعـرّف النيـرب الشريـر عن نفسـه.

- أنا الشيخ (أبو العارف)، من القدس العاصمة، من العيسويّة.

- أهلًا وسهلًا، أخوك (مراد) من غزة البطولة.

- يـا هـلا، أحسـن نـاس، أبطـال والله، ياريتني مـن غـزة، كيـف حالـك؟ ويـن رايح؟!

- والله الحمد الله، ما بعرف، بلّغوني إنّي خلصت تحقيق، وطالع السجن.

- وكَّعت؟ وبصمت!

- انتبه (مراد) إلى اختلاف اللهجة، وقلْب الحروف، كلهجة عمّه، فأجاب: آه، آه.

- مِيّة الميَّة خيّه.

وبدأ ينصحه نصيحة الأريب اللَسن، يعظه موعظة الشيخ الجليل والعالم النبيل، إنتَ هي خلَّصت تحكيك، وفعلًا انتَ رايح ع السجن، اسمع، أنا موجود في سجن (ايشل)، في كسم 11، ع الطابق الثاني، إذا ما فوّتُوك عندي بَبْكَى أبعث لك رسالة، بتواصل معك، المهم، كرَّبنا نِصَل، ديبر بالك على حالك، وإنتَ همَّه بتروح على كسم زغير، ثلاث أربع غرف، بياخذوا بياناتك، وبيسألوا عن قضيتك، وعن التحكيك، بتعبي الاستبيان، بتكتب كُل شي، وأنا بحاول أزورك حتى أستعجلهم بطلوعك.

- مش فاهم إشي، شو غرف؟ وشو قسم؟ وإيش أكتب؟!

- إنتَ هالقيت، يعني الآن إنتَ جديد، فلازم يعرفوك، ويسألوا عنّك برّة، تنظيمك، معارفك، جيرانك، ويعرفوا شو اعترافاتك، حتى أولاد مجموعتك، واللّي كانوا معك.

- كيف يعرفوا؟ ما يسألوا المحامي وخلَصنا؟!

- لاء هـون في غرفـة اسـمها الغرفـة الأمنيـة، هـاي عبـارة عـن المُنخـل اللي بينخلـوا فيـه النـاس، وهـون تنظيـمات ونظـام مـش فـوضى، فلمّـن تفـوت بيجيـك المسـئول الأمنـي، وبتحكيلـه كل شي بتعرفَـه، أو بتكتبـو كتابـة، ومـا تخـاف، ومـا تقلـق، وبتتعـرف عـلى الشـباب، وهـون فيـه غـزازوة كثـير، وبتطلـع معهـم ع (الفـورة) كل يـوم، وبتعيـش حياتـك، وبعديـن بتشـوف حسـن سـلامة!! هـوّه عنّـا في السـجن، وراح يقابلـك!!

- فورة؟!

- آه، يعنـي السـاحة الـلّي بنطلـع عليهـا الصبـح والمسـا نِتشـمّس، حتـى مـا نعفّـن في الغـرف، وإنتـا ليـش قلقـان، لا تفكـر كثـير، وبتطلـب التلفـون حتى تكلّـم أهلـك.

- تلفون؟!

- آه عنّـا تلفونـات مهرّبـة، بتحتّـشي مـع أهلـك وبتطمّـن، بـس بسرعـة خلّـص مـع الموجّـه الأمنـي، ومسـئول التنزيـم، حتـى تطلـع بسرعـة عالسـجن والأقسـام، وبتعيـش وين بـدّك، وبتّشـلم أهلـك كل يـوم، وفيـه اشـتير أجهـزة.

اسـتطاع (مـراد) أن يفهـم هـذه اللهجـة، ففـي الأصـل هـي لهجـة قرويـة، وهكـذا كانـت ومازالـت جدّتـه تتحـدث، وكذلـك عمّـه الأكـبر وكل مـن هاجـر مـن البـلاد عـام 1948م فلـم يسـتغرب إلا مـن الحـروف التـي لا يسـتقر عـلى لفـظ واحـد لهـا، وأحيانًـا تتحـول معـه الحـروف كأنهـا ليسـت لهجتـه الأصليـة، أدخـل لهجـة القريـة عـلى لهجـة المدينـة، ولهجـة غـزة عـلى لهجـة الضفـة

على لهجة الداخل المحتل، كأنه يقلد تقليدًا، فينجح أحيانًا ويخفق أخرى، لكن (مراد) لم يكترث كثيرًا، ولم يفكّر مليًا بهذه اللهجة؛ لأنها على جميع الأحوال جديدة عليه، ولا يستطيع أن يجزم إن كانت لهجته أم مصطنعة.

من أين لـ(مراد) أن يعرف أن مَن يسأله عن شيء لم يعترف عليه فهو جاسوس (عصفور) حتى لو كان والده، من أين له أن يعلم أن هذا الشيخ العابر الثرثار الذي يسرع في كلامه سرعة الغزال أمام الأسد، هذا الشيخ الذي ختم على جبينه سمَة الصلاة أنه شيطان (عصفور)، وكيف سيعرف أن هذا الماكر قد عاث في رأسه فسادًا ودمارًا وخرابًا، هيَّأ عقله وفكره وقلبه وجوارحه ونفسيّته _رغم استهجانها_ لأن تتقبل الآتي، وتتعاطى معه بسلاسة، وكيف له أن يعرف أن هذا المحتال قد أعدّه إعدادًا كاملًا، في هذه الدقائق المعدودة لأن يُخرج كل أسراره عند أول سؤال من أيّ شخص لا يعرفه، كيف له أن يعرف أن هذا رفيق الدرب (عصفور) قد سرق عقله، وسيسرق حياته وعمره وزهرة شبابه بعد أيام قليلة! أنّى له أن يعرف أن هذا الزاهد هو الأذن التي تزرعها المخابرات بين السجناء في جميع أنحاء العالم، وإن كان الشكل هنا لا يُشبهه شكل، إلا أن الهدف واحد، الحصول على معلومة أو البحث عن نقاط ضعف المتهم، ليتم الضغط عليه، ومساومته عليها وابتزازه بها، حتى ينالوا مرادهم.

أنّى لـ(مراد) أن يعرف أنه ذاهب إلى قسم بأكمله عملاء، جواسيس، محتالون، ممثلون، لصوص، ماكرون، خبثاء، سيطر عليهم عدوهم برذائلهم؛ لأنه من السهل أن تحكم البشر برذائلهم من أن تحكمهم بفضائلهم، أسموهم (عصافير) وأصبح الاسم شائعًا، فلم يكتفوا بظلم البشر، بل

ظلموا رُسل الأنبياء، تعلّموا وتدرّبوا على يد أكبر الخبراء، لكن التجربة والممارسة لسنوات جعلت الطالب يتفوق على الأستاذ، فمن الصعوبة بمكان أن تعثر لهم على خطأ ولو بسيط؛ لأن من الأصل وضعك وحالتك النفسية لا تسمح لك بالتفكير العميق، والتمييز بين الغث والسمين.

كل ما يريده الأسير الآن هو التحدّث، إخراج الأسرار الجاثمة على صدره كالجبال كصخرة بلال، يريد أن يزحزحها، ولن تتزحزح إلا بمساعدة آخر، لا يهم كيف ولا أين ولا من، المهم أن تتدحرج قبل الاختناق ومفارقة الحياة، يريد أن يتحدث إلى البشر، أو إلى الورق، فأنّى لـ(مراد) أن يعرف أنه على أكبر مسرح، مع أطول مسرحية لم يعرفها التاريخ البشري بعد، وسيكون له دور البطولة دون أن يعلم.

(حسن) توجّه قبله بيوم، إلى الشمال، مع رفيق درب آخر، إلى (مجدو) وهو في المركبة مقيدًا، بعد التفتيشات المعهودة والانتظارات المسمومة، القيود، الغمامة المعروفة، سارت المركبة به على غير هدى منه، لا يجد سبيلًا للخلاص من الأفكار التي تدور في رأسه دوران الكواكب والنجوم، غير أنه يعرف شيئًا مهمًا، أنه من قطاع غزّة، وأسرى غزّه يتركزون في مدافن الجنوب (نفحة، رامون، النقب، ايشل، أوهلى كيدار) ويعرف أن المحقق أبلغه أنه خارج إلى مدفن (مجدو) أو (عوفر) لم يعد يذكر؛ لأن التحقيق انتهى معه، فأدرك (حسن) أن هناك كارثة، لماذا إلى سجون الشمال؟! مصيبة بانتظاره، يسبَح في ظلمات المجهول، نفق من العتمة، حتمًا الأمور لا تسير في الاتجاه الصحيح.

وصل (مجدو) بعد ساعات، لم يتمكن من رؤية شيء، لا من الغمامة ولا من الحديد، فقد أجلسوه على كرسي إسفنجي، مريح، عريض، مستطيل، مصفّح، يفصل بين الصندوق الخلفي، وصندوق السائق، وبابه جانبي، لا يشبه إلا القبر، أو صندوق الموتى الخشبي، لا يسمح غير بهرطقات الرفيق، الذي أمْره أصبح مكشوفًا، بإرادته كشف عن نفسه، سار حتى وجد نفسه أمام ثغر الحوت العملاق الذي يبتلع المركبات ويُحكم عليها الإغلاق من الأمام والخلف ويلوكها ويقلّبها بلسانه، وبين أسنانه وأنيابه، حتى يتأكد من سلامتها، فيلفظها خارجًا مطلقًا سراحها، لتواجه مصيرها الأسوأ.

فحص وتمحيص، تفتيش مُذل ومهين، حتى دخل إلى معمعة الأبواب والأزقة، ومن زقاق إلى زقاق، ومن باب إلى آخر، حتى وصل جناح المسرح المعد للألاعيب، قسم قديم يتوسطه ممر، سقفه أقواس، كما الأبنية الأثرية، أربع غرف تقابلها مثيلاتها، مفتوحة غالبًا، يُطلقون عليها قسم 20، يغيّرون الرقم نادرًا.

دخل (حسن) إلى الغرفة الأولى، كمهاجر نزل في بلاد الغربة، لا يعرف بشرًا ولا حجرًا، بادر الحضور محادثته بالسؤال، والتعّرف عليه، أحضروا الحلّاق، جهزوا الحمّام، بعض الأساسيات، ملابس داخلية وخارجية، صابون، شامبو، بشكير، شفرة حلاقة، وغيره.

وصل (يوسف) إلى مسرح (المسكوبية) لم يعد هناك فرصة لأن يفكّر أكثر في صديقه (أحمد) في بلاد الحرمين، الذي أنهى أداء العمرة وزار

بعضًا من الأماكن المقدّسة الأثرية، واشترى الهدايا ذات الدلالات الدينية، واستعد للرحيل عائدًا إلى فلسطين، إلى غزة الإباء والعزّة، غزة هاشم، وفجأة، دون سابق إنذار، باغته أمر جلل، لا يحدث عادة مع أبناء جيله، لتنوح عليه النائحات، وتستقبله السماوات.

(حسن) وصل إلى (مجدو)، بأقسامه، من الأول حتى التاسع، من أسفل الجبل حتى القمة، من ارتفاع متر حتى ثلاثين مترًا، بشكله المدرج، لكنه دخل قسمًا مجاورًا، قسم 10 القديم، بجوار القطار قديمًا، وكأن القسم تحت جسر القطار، ومازال يسمى باسمه.

(مراد) وصل إلى (إيشل) الذي أخطر ما فيه أن لصوصه المحتالين (العصافير) من كبار السن، والمشايخ، فلا يشكّ فيهم شاك، ولا تدخل لقلب (مراد) الريبة بوطنيتهم وانتمائهم واخلاصهم.

ثم تبعهم، وسبقهم العشرات إلى هذه المسارح، ودور السينما.

في كل موقع من تلك المواقع، يُكتب سيناريو الحوار، وتُختار الشخصيات وأسماؤها، حسب المعلومات الواردة عن كل أسير، بحيث تتناسب الشخصيات مع ثقافة وطبيعة الشخص وميوله، إن كانت إسلامية، علمانية، يسارية، وتتناسب مع البيئة التي قدِمَ منها، وسكنه، ومنطقته، وجيرانه، ومعارفه، وثقافته، فيتم انتحال أسماء شخصيات معروفة في المجتمع، كالأسرى القدامى الذين تُتداول أسماؤهم وصورهم على الإعلام المسموع والمرئي والمقروء، وهذا الحال لا يسمح لأحدهم أن

يفكّر كثيرًا بالصورة التي أمامه، الواقعية، والصورة التي كان يراها على وسائل الإعلام، وسيبتلع الطُعم!

فالإسلامي، تكون الشخصيات من حوله _إضافة إلى أنها معروفة_ متديّنة، ملتحية، مواظبة على صلواتها، صيامها، خطبها، مواعظها، رزانتها، هدوئها، غض نظرها عن التلفاز، الإكثار من عبارات (أخوك في الله، لله، من أجل الله، في سبيل الله، اليقين، التوكل على الله، الذكر، الدعاء، التسبيح، الصبر)، الأسماء والكُنى إسلامية أيضًا (أبو مجاهد، أبو البراء، أبو الحسن، أبو الحسين، أبو خديجة، أبو دجانة).

العلماني، واليساري، الشخصيات غير ملتزمة دينيًا، لا بصلاة، ولا بصيام، بل تكثر من السبّ، الشتائم، الألفاظ السوقية البذيئة النابية، تكثر من الحديث عن الجنس والنساء وأحوالهن، لتُمتع الشباب، تهتم بالدخان، والقهوة، والأفلام، وتختار لنفسها ألقابًا معيّنة، وأسماء القدامى من الثوار والمناضلين (أبو وديع، أبو جورج، أبو النار، أبو الصامد، أبو الوفا، أبو جندل، أبو حنظلة)، والألقاب كذلك (الحوت، السبع، الضبع، هتلر، الحنكش، عتريس، عفريم، كرنوش، جُحْدُر).

19

المُحْسِنُ فِي ثِيَابِ المُسِيء

دخل (يوسف) الغرفة، عرّف كل زميل عن نفسه، وتبعهم (يوسف) بالمثل، وظل يجول ببصره في الغرفة، عن يمينه في الزاوية سرير بطبقتين (برش) كما يسميه السجناء في البلاد العربية، من محيطها إلى خليجها، يقابله باب الحمام الذي على يمينه، وعن يساره (برشيْن) آخران بينهما متر واحد، وساحة صغيرة تتوسط الغرفة، (البرش) عن يمينها، و(البرشانْ) عن يسارها، وشباك يعلوه صندوق تلفاز أمامها والحمّام خلفها.

دقائق، حتى غلت القهوة، الحساء جاهز لمن يلتهمه، الحلاق، وأدواته، الصابون، الملابس، بعد ساعة من الراحة، الطعام الشهي، الشراب اللذيذ، والحمّام المنعش، خرج (يوسف) إلى سريره الذي أعدّوه ورتبوه، وطلباتك أوامر.

تقدم إليه أحدهم،

- أهلًا وسهلًا، ألف الحمد لله على السلامة خيّي، هون إن شاء الله بترتاح، وأتمنى لك إقامة قصيرة في هذه السجون الظالم أهلها. شو شكلك مش عارفني؟

- لا والله! ما حصل لّي الشرف وشفتك قبل هيك!

- يا راجل ركّز؟! أنا حسن سلامة من عندكم من غزة، من خانيونس، ما شفت لي صورة قبل هيك؟!

- أهلًا وسهلًا يا سيدي، لا والله مش فاكر!

- اسمع يا زلمة، أنا صار لي أكثر من عشر سنين في السجن، وهاي الغرفة اسمها الغرفة الأمنية، المُنخل يعني، كل واحد لازم يدخل هون، وبنوخذ منه كل البيانات والاعترافات، ونسأل عنه برّه ونتأكد من هويته، بعد هيك بيطلع السجن؛ لأنه بتعرف، ما بدنا حدا يخترقنا، وهذول اليهود أولاد كلب، دايمًا ببعتولنا الجواسيس والكلاب تبعونهم.

- ،،،،،،،!

- هـلأ بيجيـك الموجّـه الأمنـي، يعنـي المسـئول، وشـو مـا بيسـألك بتجاوبـه، لأنـه هـوّه الوحيـد المخـوّل بهالـشي، أو هظـاك الشـاب مـن غـزة كمان، هـوّه موجّـه الغرفـة، إذا بـدك تخلّـص بسرعـة، وتطلـع، احكـي معـه، بيعطيـك ورقـة وقلـم، وبتكتـب براحتـك وأقـل مـن راحتـك، بـس هالحـين عبّـي الاسـتبيان، والأهـم مـن هـذا كلُّـه إذا فيـه اشي ضروري بـدّك تبلغـو للتنظيـم بـرّه، قـول، يعنـي إذا اعترفـت عـلى حـدا، أو بـدّك تحـذّر حـدن، أو أي معلومـة مسـتعجلة بـدّك توصلهـا، هالقيـت بنبعـث بنجيبلـك التلفـون، عنّا هـون تلفون مهـرّب، هاظـا إشي سرّي، وكـمان راح يـزورك مسـئول التنظيـم هاليومـين، إذا بيصـير مجـال.

يسـتمع (يوسـف) لهـؤلاء، كـم يتحدثـون، يسرعـون، دون توقـف، لا يعطـون فرصـة للـرد أو التفكـير، ولم ينتبـه إلى كلام الخائـن ولهجاتـه المتشـابكة تشـابك الأسـلاك الشـائكة، كلـمات فصيحـة، وأخـرى عاميّـة، حتـى أدخـل اللبنانيـة القرويـة، المدنيـة، لم يشـك (يوسـف) في التكلّـف والتصّنـع في لفـظ الكلـمات، بـل ألتمـس لـه العـذر فلربـما طـول فـترة السـجن والاختـلاط بالثقافـات المختلفـة واللغـات المختلفـة أثّـرت بـه وشـوهت لغتـه التـي أدخـل عليهـا الكلـمات العبريـة والإنجليزيـة، وكذلـك لهجتـه الأم التـي تغيـرّت مخارج حروفهـا، واسـتبدلت بعـض كلماتهـا، كـما يحـدث مـع كل أسـير ومـع كل مهاجر إلى بـلاد الغربـة، و(يوسـف) ليـس خبـيرًا بلغـة الجسـد، ولكـن لـو أمعـن النظـر في عينيـه وحركـة يديـه وتقلبـات وجهـه، لأفصحـت عـن خبيئـة نفسـه، ولفضحـت أسرار هـذا المحتـال.

ربما عقله الباطني، الفطرة السليمة، شعرت بذلك؛ لأن (يوسف) رفض الحديث أو الكتابة إلا أمام (أبو الصائب) الذي ارتاح لمرآه، ولن يفصح بشيء إلا أمامه.

في صبيحة اليوم التالي، جاء (أبو الصائب) مبتسمًا، دخل الغرفة، سلَّم، ألقى التحية، لم يصدّق (يوسف) ما رأى، وراعة منظره، دبَّ الرعب في قلبه، مَنْ هذا؟! هذا ليس ما كان بالأمس! حذاء عسكري (بسطار) _كما يقول إخواننا الأتراك_ في قدمه، رأسه مدبوغ بطبعة (المارينز)، رائحة عطر زكية فوّاحة، ملابس أنيقة!

أصبح (يوسف) في ريب من أمره، رفض الكلام أو الكتابة أو الإفصاح عن أسراره، باستثناء أنه كتب اسمه وعنوانه وهاتف أهله وتحصيله العلمي والحزب الذي ينتمي إليه.

(أبو الصائب) مربتًا على كتف (يوسف)، سائلًا:

- شو يا راجل ما بدّك تحكي؟ كالولي بدك تكلمني، كول، احكي، أنا بسمع وزي ما بيكولو كلّي آذانٌ صاغية.

- لا ولا شي، ما فيه عندي اشي أحكيه، خالصة.

- كيف؟ احكي قصتك، حتى تخلّص وتطلع عند الشباب ع السجن، آه شكلوا عجبك الأكل، المقلوبة، الجاج، العسل، القهوة، الحليب، المشاوي، لا تكلك، فيه عند الشباب فوق أكثر من هيك، وبيطبخوا لحالهم، مش زيْنا بنجيب من المطعم جاهز.

- من المطعم؟ جاهز!

- قصدي من مطبخ السجن، ما عليك من هذي التفاصيل، بكرة بتطلع، وبتتعرف ع السجن شوي شوي، لأنه عالم غير اللّي بتعرفه، وحياتو حياة ثانية.

- يا سيدي بنعيش وبنتعلم، وبنتعرف كمان.

لكن (يوسف) احتار في الكلمات والحروف كيف يلفظ القاف مرة بشكل صحيح من حلقه، ومرة تصبح كافًا من وسط لسانه، ومرة يقول قل ومرة كل، ثُم شُل، ويقصد «كُل الطعام»، مرة هسَّه ومرة إسّه، هو ومن في الغرفة عندهم معمعة في الحروف، مرة هذا، هادا، هاظا، هيدا، لا يثبتون على حرف ولا يستقرون على رأي.

واصل (أبو الصائب) حديثه،

- قل لي، قبل ما تكولّي، انسيت أكولّك إنُّو بيسلم عليك (أبو الحسن) كثير السلام، وبيقولك لا تخاف، إنتا في أيدي أمينة، واحكيلنا على كل إشي حتى نبعث له، حتى يوخذ احتياطاته، هوّه والشباب.

- الله يسلّمو، قل له: ما فيه جديد، غير إنهم بيعرفوا إنّه أنا اللي كنت مع عماد وإنه هو اللي وصّلْنا.

- وغير هيك؟!

- ولا شي هـي كل القصـة وكل الاعترافـات، وإذا بـدّك إشي ثـاني، حُطّـولي محامـي، وبتسـألوه هـو أعـرف وأدرى.

اشـتاط (أبـو الصائـب) غضبًـا، وفقـد صوابـه وبـدأ صوتـه يرتفـع شـيئًا فشـيئًا، حتـى فـاض الكيـل وبـدأ الـصراخ، التهديـد، الوعيـد، وفقـد صـبره عندمـا اتهمـه (يوسـف) بـأن هـذه أعـمال جواسـيس، ورفـض الحديـث معـه، فهـدّده قائـلًا: راح تنـزل زاويـة، ونكتـب فيـك تعميـم يلـف ع كل السـجن، إنـو إنـت رفضـت تحكـي، ومشـكوك في أمـرك، ثـم خـرج يُولـول ويحـدث نفسـه،

وتقدّم موجّه الغرفة إلى (يوسف) بوجهه الحاقد.

- اسمع أنا مضطر لتنفيذ الأوامر، إنتَ لازم تنزل زاوية.

- شو يعني؟!

- يعنـي بتدخـل (الـبرش)، وممنـوع حـدا يحكـي معـك أو تحكـي مـع حـدا، وحنسـكّر عليـك ببطانيـة، حتـى مـا تشـوف حـدا، وأكلـك وشربـك بيصلـك لعنـدك، لحـد مـا يجـي التنظيـم ويحققّـوا معـك، لأنهـم بيشـكّو إنّـو إنتَ عميـل، باعتينـك اليهـود تخـترق صفوفنـا.

دخـل يوسـف في صومعتـه يومـين بليلتيهـما، يصـول ويجـول بفكـره وتنهـار نفسـيته، وتعـب مـن كثـرة نومـه، وتصلّبـت شرايينـه، فبـدأ يحـدث نفسـه لينتقـل بهـا مـن هـذا الحـال إلى حـال آخـر، ومـن هـذا الواقـع إلى واقـع أفضـل، فبـدَّل، وبقيـت الجثـة مكانهـا، فأينـما يكـن فكـر الإنسـان يكـن العقـل والفكـر لا يسـتطيع الاحتـلال أن يحـاصره، ولا يسـتطيع الرصـاص أن يخترقـه،

عاد لممارسة تعلّم الخشوع، فبدل أن يغرق في أفكار لا تغني ولا تسمن من جوع، وتذهب به إلى مهالك الردى.

درّب نفسه على الخشوع ليُطعمها من جوع ويأمنها من خوف، يُصّلي جالسًا، يُركّز في أركان صلاته، يتفكّر في معاني كلماتها، ينجح تارة ويُخفق أخرى ويحاول من جديد، وما أن تداهمه أفكار الواقع حتى يقطعها ويعود لتمرينه وعلاقته مع ربّه، قليلًا قليلًا، رويدًا رويدًا، حتى وصل إلى الانخطاف، الخشوع الكامل، ذرفت عيناه، ذاق حلاوته، ندم على ماضيه، على النعمة التي أضاعها من بين يديه، فقد كانت صلاته عادة، رتابة ، روتينًا، حركات، حمّل الذَنب لكل كبير لم ينصحه ولم يعلمّه الخشوع ولم يُدَرّبه عليه، لكنه الآن تعلَّم، فذاق النعمة، الحلاوة، العسل والشهد، وحتمًا من يتلذّذ بالطعم مرّة سيعود إليه كل مرة، وهنا تعرّف على الله و أحبه وعَشقه وَعَرَفه، فمعرفة الله تسبق محبته، والصلاة الكاملة الخاشعة، هي التي ترشد إلى السماء.

عاد المخادع الكاذب (أبو الصائب) فتح (البُرش)، اقتحم على (يوسف) خلوته، فلم يشعر به حتى وخزه، وابتسم ابتسامه الثعلب الماكر.

- لا تزعل مني، عنّا قانون وما بنسمح بالتجاوز، وأي حدا بتجاوز بنعاقبه، وإنتا ما بدّك تحكي، يعني إنتا مُتهّم بإنك جاسوس.

صرخ (يوسف): مين الجاسوس؟ إنتا وكل عيلتك الجواسيس، مش إنتا سألت (أبو الحسن)؟! وقالّك مين أنا، رُوح انقلع من خِلقتي، بتسأله وبتعمل اللي بدّك إياه!

فقال (أبو الصائب) غاضبًا: واحنا شو عرّفنا، يمكن ربطوك في التحقيق، وسقطت، وصرت تشتغل معهم ضدّنا.

- أبوك على أبوهم، ما اشتغلت مع الشُّرفا والمحترمين حتى أشتغل مع شِكلك وشِكل اليهود تبعينك يا واطي يا ابن الحرام.

- ماشي لا تعصّب ولا تثور، هي التنظيم جاهزين يقعدوا معك في الغرفة الثانية، إنت جاهز؟

- طُز فيك وفيهم، طبعًا جاهز.

- طيب يلَّا قوم إلبس برجلك خلينا نروح نشوفهم، شوي بس الشباب يشوفوا الطريق، ويلهّوا ويشغلوا الشرطي حتى نروح ع الغرفة الثانية بدون مشاكل وبلا ما يلاحظوا علينا.

نادى المنادي من مكان قريب: (أبو الصائب) يلاَّ يلَّا جاهزين، اطلعوا بسرعة.

فخرج (يوسف) و(أبو الصائب) إلى الغرفة المجاورة التي لا تختلف كثيرًا عن سابقتها غير أنها أوسع، و(أبرشها) أقل عددًا، يستند إلى أحد جدرانها ثلاثة مقاعد، يجلس عليها ثلاثة أشخاص ملثّمين بالسواد، مقنعّين بكل معاني الخبث والسوء والخداع والقذارة والحقارة، أمامهم منضدة مستطيلة، يعلوها شيء من لفائف التبغ، المشروبات، المكسّرات، وقفوا جميعًا عندما أقبل عليهم، سلّموا بحرارة، طأطأ كلٌ برأسه، لم ينبس أحدهم ببنت شفة، جلسوا، تناجوْا بالإثم والعدوان،

عَرفوه وهو لهم مُنكر، شاركهم الوسيط (أبو الصائب) الذي بدوره طلب من (يوسف) عدم الكلام إلا عن طريقه بحجة أن لا يتعرّف على أصواتهم عند خروجه إلى السجن واللقاء بهم هناك.

- هذول يا (يوسف) الموّجهين، يعني المسئولين عن التنظيمات في السّجن ولازم تحكي كل شي إلهم، حتى ما تسوء الأمور أكثر من هيك.

- وليش ما يكشفوا عن وجوههم؟!

- هيك القانون، حتى نحافظ على السريّة وع حياتهم، وما تحكي غير لّمن أسألك، هُمّه بيخبرّوني بذاني ، وبيسألوا، وأنا بنقلّك السؤال وإنتَ بتجاوب.

أصبح (يوسف) في وضع لا يُحسد عليه، ولا يعرف من هؤلاء، من يكونون؟! ماذا يمثّلون؟! لماذا لا يتكلمّون؟! على طريقة الملثمّين المطاردين في انتفاضة الحجارة سنة 1987م، عندما كانوا يكتبون الشعارات على الجدران، فلا يتحدّثون إلا (بالبَسبسة) كما ينادون على القطط.

بدأ الحوار وطال، هؤلاء يتناجون، و(أبو الصائب) ينقل النجوى إلى (يوسف) لتصبح علنًا، كأنه مترجم، و(يوسف) يجيب بما لا يريدون حتى غاصوا في التفاصيل، وتراشقوا بالاتهامات، وتعالت الأصوات حتى فقد (يوسف) السيطرة على نفسه عندما اتهموه بالعمالة، وأنّه سينزل به بيان رسمي، يُعمّم على كل السجون، ليعرف الجميع ما كان من أمره، ويرفضوا استقباله، ويعود إلى الزنازين أو إلى أقسام المحميين، العملاء، الذين تقوم مصلحة السجون بحمايتهم.

فَقَد (يوسف) البوصلة، وأعمى الغضب بصيرته قبل بصره، وخُتم على قلبه، وأصبح يصرخ ويهذي، وكلّما عَلا صوته وارتفع غاص في الوحل ووقع، أنا مش عميل يا أولاد الكلب، يا مـ،، يا شـ،، يا جواسيس، أنا اللي كنت مع (عماد) أنا اللّي، أنا، أنا،

ما أن انتهى حتى أزال أصحاب اللثام القناع عن رؤوسهم، فعرفهم وهم له عارفون، سقطت ورقة التوت، ظهرت العورات وبانت، شعر (يوسف) بالمصيبة، وقف جامدًا، مُنوَّمًا مغناطيسيًا، تغلي الأفكار وتتدافع في رأسه، انطلقت الرصاصة بل الرصاصات، وإذا خرجت الرصاصة وانطلقت فلا تعود إلى جرابها، قالوا: شكرًا خبيبي عالمعلومات القيّمة، سلام، شاو.

تركوه بين الأحياء والأموات، أدرك أنه وقع في المصيدة، مما لا يسع للشّك مجالًا، ولا للرّيب مكانًا، بالدليل القاطع الجازم، فقد كانوا المحققّين الذين جمعهم (موشيه) في الأيام الأولى ليتناجى معهم، هُم هُم (ألكس) و(مارون) و(إلدار).

قبل أن يستفيق (يوسف) من غيبوبته، ومن وقع صدمته، جذبه (أبو الصائب) من يده، وخرج به إلى باب القسم، سلمّه إلى السجان، أعاد إليه القيود، سلمّه إلى الحرّاس الذين أحضروه أول مرّة، وهو يجر خيبته قبل أن يجر سلاسله، يجر أذيال الهزيمة، يمشي متمايلًا كالأفدغ، عاد بخيبات الأمل، ونوبات الألم، لكن الأولى نحتاجها كي نتعلم بالتجربة كيف ننجح، والثانية نحتاجها لنتعلم الصبر، تعلّم، وجرّب، وصبر، لكن هذا سيكلفه سنوات ليس لها عدد من الآلام.

آبَ كما ذهب، بنفس المسار عاد، نفس الطرائق مضى، لكنه لم يرَ شيئًا هذه المرة، فوقْع الصدّمة ما زال جاثمًا على صدره، حوّلته إلى جثةٍ تتنفّس بصعوبة حد الاختناق، مضت الدقائق، تجاوزت الستين، حتى وصل إلى نقطة الانطلاق، البداية التي انطلق منها، دخل كقادم جديد، تفتيش، مُمرض، تدوين بيانات، توقيع، أمانات، إلى المحقق مباشرة.

جلس على الكرسي، مقيدًا من أرسُغه، مثبتًا في الأرض كالبعير، حارسان ضخما الجثّة، بالكاد يتسع الباب لأحدهما عن يمينه ويساره، والمحقق المحتال الذي وصل قبله (مارون) أمامه، يُقلّب صفحات حاسوبه كما العادة، يدوس على أزراره، ويختم بزر الطباعة، تخرج الأوراق من الطابعة تباعًا بكل كلمة نطق بها أمام المقنعين الذين كان هو أحدهم.

واصل (يوسف) صمته، فلم يعد باستطاعته التعليق بعد أن فعلَ كبيرة، يخشى أن يتفوّه بكلمة فيفعل كبائر أخرى، ويغوص في الوحل أكثر، غريق يبحث عن سبيل نجاة، مرّت الساعات وهو على حاله، واللص (مارون) يروح ويجيء، يغادر ويعود، ذهابًا وإيابًا، والحرّاس مكانهم، يقعدون ويقومون، يتحادثون ويصمتون، وهو ثابت مكانه كوتد خيمة،

لم يتخلّل هذا اللقاء إلا جمل، عبارات، كلمات معدودات، (مارون) يعرف الحالة النفسية لـ(يوسف)، في هذا الوقت بالذات، تركه يهدأ ليستوعب ما حدث وتخفّ وطأة الصدّمة، فأصعب شيء على الحر أن يُغدر، والأشد أن يكون الغادر موثوقًا به، فقد وثق بهؤلاء الأسرى، المناضلين، المجاهدين الثائرين، الملائكة، لكنه اكتشف _بعد فوات الأوان_ أنهم

ليسوا كذلك، معتقدًا أن مرحلة وفترة الجواسيس كانت في الزنازين عندما اكتشف أمرهم، وانتهى منهم، لكن اللعبة كانت أكبر من خياله وفكره.

أنّى لـ(يوسف) أن يعرف أن جاسوس الزنازين هو مَن كشف نفسه، أنّى له أن يعلم أنّ (خفافيش الليل) _كما يسمونهم_ في أقبية التحقيق، جُعلوا ليحرقوا أنفسهم، لكي يُلغي الأسير هذا الحساب من ذهنه، أنّى له أن يعرف أن هناك أقسامًا بأكملها، مليئة بالعملاء (العصافير)، تحاكي تمامًا واقع الأسرى وأقسامهم الحقيقية، أنّى له أن يصدّق أن (العصافير) هم من أبناء جلدته، ممن هربوا وفرّوا إلى عدوهم، باعوا أنفسهم بثمن بخس، فضَّلوا العدّو على الصدّيق، البعيد على القريب، الحرام على الحلال، الكذب على الصدق، الخيانة على الوفاء، الدّعارة على الطهارة، الضر على النفع، الوضاعة على الشرف، باعوا الغالي بالرخيص.

كيف لـ(يوسف) أن يعرف من البداية أن هذه المركبة الصغيرة (GMC) ليست للتوصيلات إلى السجون، بل هي للنقل والمهمات الخاصة العاجلة، كهذه السفرية أو إلى المستشفى، للسفر إلى مسرح العمليات البطولية، وكذلك لحرّاس (البوسطة)، حافلة الترحيلات، الباص المصفّح المليء بالأسرى من وإلى السجون المختلفة، والمحاكم المتنوعة، والعيادات المتفرقة، على امتداد هذا الوطن المحتل.

كيف لـ(يوسف) أن يعرف أنه لو لم يغضب، وأصرّ على الصمت، رغم الزاوية ورغم الاتهام الشنيع، فإنه سيعود منتصرًا إلى المدافن مرّة أخرى، وأنه لو أصرّ على اتهامهم بالعمالة، ونطق بكلمة أنتم (عصافير) ورماهم

بها، فعلى الفور سيعيدونه من حيث أتى أو سيرحلّونه إلى موقع آخر من مواقعهم، على أنه السجن الحقيقي، وسيعاودون الكرّة بنفس النسخة.

أنى لـ(يوسف) أن يعلم بعد أن سقط في الشرك واعترف أو كتب ما كتب، أنّ الفرصة ما زالت سانحة أمامه ليرفض الاعتراف مرة أخرى أمام (مارون) اللعين، ويرفض التوقيع، ويتهم نفسه بالكذب، خاصة في ظل عدم وجود دليل، لكنّه وقّع، ظنًّا منه أن الأمر انتهى، وأصيب بالخيبة والإحباط.

بعد ساعات من إهماله، أعاده (مارون) المحتال إلى مدفنه.

20

يُغيّرُ الثَّعْلَبُ جِلْدَهُ وَلَا يُغَيِّرُ طَبْعُه

في كل موقع حيلة، في كل مكان مصيدة، في كل ناحية تُحاك مكيدة، حسب الشخص، حسب الحالة، المهم أن تكون النتيجة واحدة، السقوط والدمار.

(مراد) في «إيشل» لم يسألوه عن شيء، عزّزوا ثقته بهم، أعطوه الطمأنينة بأنهم يعرفونه، يعرفون أهله، أصدقاءه، حزبه، مسئوله، عمله العسكري، تفاصيل حياته، أوهموه أن كل مَن في الغرفة من مخيمّه، حارته،

المخيمات، القرى المجاورة، نسجوا له شبكةً من العلاقات الاجتماعية والمعارف الوهمية، هذا كان صديق والده في زمانه، هذا كان جارهم وانتقل مع السلطة إلى الضفّة الغربية، وذاك كان زميلًا لخاله أيام الدراسة، وذلك كان شريك عمه في تجارته، وآخر كان يعمل مع نسيبه عند الاحتلال قبل الانتفاضة الأولى، وآخرون زاروا منطقته أكثر من مرة، ويعرفون الحارة وشوارعها، ودورها، وذاك كان في مهمة جهادية، طارده الاحتلال وآواه أهل الحي، نسجوا له واقعًا حاكوا فيه الواقع، ففي السجن الحقيقي، كثيرًا تجد هذه العلاقات، والكل يعرف الكل عن طريق طرف ثالث أو رابع، ثمّ عيّنوه موجهًا للغرفة، شرحوا له عن طبيعة هذه الغرفة وطبيعة عملها في استقبال كل قادم جديد، كيفيّة التعامل معه، المطلوب منه، فحصل (مراد) على دور البطل في هذا الفيلم اليومي والمسلسل المستمر بحلقاته المتتابعة، المتتالية التي تصل أن تكون كالشعاع، له بداية، وليست لها نهاية.

بدأ (مراد) يمارس عمله على أكمل وجه، يحصل على اعترافات المُغرّر بهم، المساكين، ويستدرجهم كما كان يستدرج العصفور إلى فخّه في طفولته، ويزج بهم نحو المصيدة، واحدًا تلو الآخر، ومن يرفضه يقنعه ويُقْسِم له الأيمان المغلّظة _وهو صادق_ ويطيل الشرح، والمُخرج والمنتج ومُعد السيناريو ينظرون، يراقبون، سعداء بهذه النتائج الباهرة، وهذا الأسلوب، الاقناع والإبداع.

(مراد) لم يكتب اعترافه بعد، لم يُطلب منه، لم يتحدث عن قضيته، فهو فوق الشُبهات، معروف للجميع، ثم تمر الأيام والليالي ذات العدد، تقدّم إليه المُخرج:

- بيسلّم عليك شباب الحارة، (أبو مجاهد) و(أبو علي) وكل الشِّلة وبيقولولك لمّن يكون معك وقت اكتب إلنا في دفتر كل شي صار معك، من يوم ما تنظمت لليوم، واللي اشتغلت معهم حتى نراجع الأرشيف، وهالشّي مهم حتى يعرفوا الخلل اللي صار معك، ومين اللّي سلمك؟! لأنّه التحريات عندهم أثبتت إنّو فيه جاسوس في دائرتك فلازم يطلّعوه، ويعرفوا مين هو، احتمال المعلومات اللّي راح تبعتها إلهم يكون فيها طرف خيط أو دليل وإنتا مش داري ونايم على أذنيك؟!

أسهر (مراد) ليلته بكتابة قصة حياته، منذ أن خُلق حتى اللحظة، على دفتر من أربعين ورقة، الأحداث، التأريخ، الأسماء، المواقع.

أنّى لـ (مراد) أن يعرف أن هذه حيلة لإسقاط الشاب الذي بالكاد تعرّف عليه على الحاجز عند الاعتقال وتحت الضرّب واللّكم والركل وبالكاد رأى شكله، لكنَّه ما زال يذكر اسمه (حسن)، والقاسم المشترك بينهما أنهما سيسجلان بنفس تاريخ، وساعة الاعتقال، وهذا كفيل بأن ينشئ بينهما علاقة صداقة في هذه القبور.

أعدُّوا فخًا محكمًا لـ(حسن)؛ لأنه يعلم من بعض أصدقائه، ودرس شيئًا عن التحقيق، و(العصافير)، لكنه لم يخض التجربة ومعلوماته نظرية، فأعدوا له حيلة خاصة تنطلي عليه، وتثبت له صحة معلوماته.

ففي (مجدو) زوَّد (حسن) الورقة ببياناته الشخصية، وبدأ يشك في هذا الواقع، ورابه شأنهم، وكلمّا شكَّ بشيء عزّزوا ودعمّوا له شكوكه بتصرفاتهم وأفعالهم المكشوفة، فأحضروا له علبة سجائر، خُتم عليها ختْم

السلطة الفلسطينية، وكذلك مشروب الـ(XL) من استيراد السلطة، وهذا زاد ظنونه، ثم أحضروا له طعامًا لا يختلف عليه اثنان أنه قادم من أحد المطاعم الفخمة.

بدأوا يتناجون بصوتٍ مسموع، حتى قطعوا شكوكه بالخبر اليقين، كما قطعت جهيزة قول كل خطيب، ولم يكتفوا، فطلبوا منه أن يعترف على أشياء لم يعترف عليها عند المخابرات، ولهجتهم واضحة الملامح بأنها عبريّة، عربية مصطنعة، لباس مريب، وكبيرهم الذي علمهم السحر، لحيته أوشكت أن تصل حزامه، (أبو علي) ينادونه، لا يعرف للقبلة اتجاهًا، ولا للعبادة طريقًا، فكيف جاءته سِمَة السجود على جبينه؟! ربما استخدم الكي الخفيف، كما كان يفعل العملاء في انتفاضة الحجارة 1987م.

أيقن أنهم (عصافير)، فصرّح لهم بذلك، وحادَث من حوله مُحذّرًا، لكنه اكتشف أن كل الغرفة بأفرادها، كل القسم بنزلائه (عصافير)، انقضّوا عليه، قيدّوه، سلَّموه إلى السجان، جرَّه أرضًا، أحكم قيوده، وإلى حراس المركبة الصغيرة التي من المستحيل أن تنقله من أقبية التحقيقِ إلى السجن بواسطتها، فمن صعد على متنها يكون سفره إلى (العصافير)، مستشفى، مركز تحقيق آخر، أو عائدًا من (العصافير) إلى التحقيق.

استقل (حسن) المركبة فرحًا سعيدًا بإنجازه، اكتشف الحيلة، لم يسقط في المصيدة، انتبه إلى فوّهة البركان وسيعود من حيث أتّى منتصرًا، ثم بعد التفتيش الملعون، التدقيق المشئوم، الأزقة الكئيبة، الزوايا المظلمة، الروائح النتنة، كالأعمى والكفيف والأعشى، على غير هدى، إلى المحقق

المحتال الذي حيّاه، سلّم بحرارة، وصافح أخرى، الكفّ بالكفّ، أبدى إعجابه بذكائه، ثم استطرد:

والله وزبطت معك خبيبي، هيك خلصّت، روخ ارتاخ ع زنزانتك، اليوم أو بكرة بتطلع ع السجن.

- ماشي، بس بدي آكل.

- أوك، في الزنزانة.

- ما بدّي أكل الزنازين مقرف، بدي ساندويتش، ودخان وقهوة.

- آه بيطلعلك.

طلب المحقق الطعام والشراب، ألتهم (حسن) كل شيء حتى أصابته التخمة، ثمَّ قيده السجان، وجذبه من كتفه وهو يجر قيوده بين الأزقة، حتى أسند ظهره إلى الحائط، فأدخل أنف مفتاحه الغليظ في الباب، ودار دورته، واستجمع قواه، فجذب الباب، ودخل (حسن)، أُغلق الباب، استلقى أرضًا، تفوح من حوله رائحة العفونة، الرطوبة المنبعثة من الفرشة والبطانية، واستعد لينام نومة هنيئة

لم يمض الكثير من الوقت، حتى نادى السجان من كوة الباب، بعد أن سحب مزلاجها: (حسن)؟ إنتَ طالع فوق ع السجن، إجهز، راجعلك.

ثم عاد إليه بعد الدقيقتين تقريبًا، وأرجع القيد والغمامة، الجر، الدرج، الأزقّة، حتى غرفة الانتظار بجوار صالة التفتيش وأجهزتها

الإلكترونية التي بدأ يعتاد على طريقها وأشكالها، أرفق السجان معه مقتنياته الشخصية في كيس خاص، مرّرها إلى الحارس الذي استلم (حسن) فأدخلوه المركبة التي حفظ شكلها وهندستها، أحكم الحارس عليه الأبواب، وساروا به إلى البوابة الشاهقة، والتفتيش الذي أصبح يعلم كم دقيقة يستغرق، ثم إلى مبنى المركز التجاري أمام السجن، يتركه ويدور يمنة إلى شوارع المدينة بنفس الطريق التي سار بها (مراد) من قبله، ومن (عسقلان) إلى (بئر السبع) 45 دقيقة، حتى بوابة (ايشل) ومثله ويزيد في التفتيشات والانتظارات، حتى يدخل عند (مراد) رفيق رحلته.

شكّ (مراد) إن كان هذا (حسن) أم لا، كأنه هو، تقدَّما، تعارفا، كأنهما صديقان حميمان، وُلِدَا معًا، لا توأمان ولا جاران بل واحد في اثنين، واثنان في واحد، عاشا معًا، سُجنا معًا، هكذا يفعل السجن بالبشر في هذا العالم، يلتقي الواحد بالآخر مرة واحدة، دقيقة واحدة، يفترقان بعد أشهر أو سنوات يلتقيان، يذكر كل واحد منهما بالآخر، بذلك اللقاء وتلك اللحظات التي لا يذكرانها إلا كالأحلام، فتنشأ علاقة صلبة صلابة الصخور الصماء، كأنهما يعرفان بعضهما منذ أن تعرّف والتقى آدم بحوّاء، واتخذها سكنًا له، هنا علاقة الحظ، كورقة (اليانصيب)، كبطيخة مغلقة، إما أن تكشف لك عن حمرتها، وإما عن بياضها.

أخذ (حسن) قسطًا من الراحة، وأسهر (مراد) ليلته على راحة زميله، وأعّد له طعامًا، جهّز له ملبسه، مستلزماته، بحكم أنه الأقدم ويعرف الجميع، لاحظ (حسن) ما يقوم به (مراد) فسأله، فقصَّ عليه القصص، وروى له الرواية، استغرب (حسن)! وأخبره ما كان من أمره

مع هؤلاء (العصافير) في (مجدو)، لكن (مراد) طمأنه بأن الواقع متشابه؛ لذلك المخابرات تستغل هذا الحال وتحاكي هذا الواقع، وأسهب في الشرح والتفاصيل.

حتى اليوم التالي، يتجاذبان أطراف الحديث، وتعمقّا وتعرفّا أكثر على بعضيهما، بنيا جسرًا من الصداقة والثقة المتبادلة، وتبيّن لهما أن هناك صداقات عائلية قديمة، وانقضى يوم آخر، و(حسن) وسط هذا السوق، هذه المعمعة، الفوضى، يراقب، يرصد، يشاهد ما يدور من حوله.

كلمة من هنا كلمة من هناك، وإذ بـ(حسن) يقتنع بكلام صديقه ويُجرّد قلمه ويجرّه على سطور أوراقه، فتنهمر دموع اليراع تخط الكلمات على الرقاع، دون أن يعلم أنه سيأتيه يوم ستمطر مدامعه دمًا، يقُدّ خدوده ندمًا على ما فعل.

أنّى لـ(حسن) أن يعرف أن الفخَّ الأول كان مكشوفًا؛ ليسقط في المصيدة الثانية؛ ليظن أن مرحلة (العصافير) انتهت في الزنازين مرة، وفي قسم (مجدو) مرة، ولن يتوقع أن تكون هناك مرة ثالثة.

الآن فقط، انتهت هذه المرحلة، (العصافير) بعد أن أخذ اللّص وسرق كل ما في رأسه، فلم تعد هناك حاجة أو سبب لوجودهما هنا، فأقلهما السجان والحراس معًا بعد تفتيشهما، ولفظتهما البوابة خارجًا؛ ليقفزا من فوق سكة الحديد، ثم يمنة إلى مدينة (بئر السبع)، وتجاوزا مفترقات طرقها الأربع، وإشاراتها المرورية، وممرات مشاتها، وأسواقها، ومراكزها التجارية، ومنطقتها الصناعية، ثم إلى الحقول، وبيّارات الحمضيات، حتى استقبلتهم

مدينة (عسقلان) المحتلة، التي أسموها (أشكلون) وأسمو سجنها (شيكما)، مدينة «ابن حجر العسقلاني»، المدينة القديمة العتيقة الأثرية، التي قَتل فيها داود عليه السلام جالوت، وآتاه الله الملك والحكمة وعلَّمه ما يشاء، كان ذلك في (مجدل عسقلان) في قلعة (أفيق) كما أسماها الكنعانيون.

بدآ يشعران أنهما ذاهبان إلى حيث انطلقا، لكن لم يخطر ببال أحدهما أنهما كانا في المصيدة، ولا زالا يحملقان في بعضهما، ورويدًا رويدًا تتسرب إليهما الشكوك والظنون تسرُّب الماء في الشقوق، ازداد الخوف والقلق، حتى ولجا أبواب السجن.

القلب يخفق، (حسن) يرمق صديقه بنظرة الشكّ والغضب، لم يفصح، والشكّ يزداد ويغزو، لكن الشك ليس كاليقين، واليقين ليس كعين اليقين، وما يُرى ليس كما يُروى.

كان حريًا بـ(حسن) أن يبقى مصّرًا على موقفه، وألا يثق بأحد، فالشك داء لكنه قد يعلّم الحكمة، فأين ذهب الشك منك؟! وأين ذهبت الحكمة عنك؟!

ترجّلا من المركبة إلى التفتيش، كالذي مُورِس عليهما قبل ساعة، إلى القيود، الغمامة، وانفصل السّيامي عن بعضه، ذهب كل واحد منهما في طريقه، وعادت الأسرار والغموض إلى سابق عهدها، وعاش كل منهما مشاعر اللحظة الأولى التي دخلا فيها القبور قبل أسابيع ينتظران المجهول، ويظنّان ببعضهما الظنون.

لكن اليوم أصبحا يعرفان أزقة المدافن، الحراس، القيود، المواعيد، الطعام، الشراب، مكاتب التحقيق، ثلّاجات التعذيب القديمة، الحمّامات، العدد، التنقلات، الصرخات، العفونة والرطوبة، وهذا لا يهم في شيء، فما يسيطر ويحتل مكانه في العقل والوجدان أن التحقيق قد انتهى، وخرجا من تلك المقابر، فلماذا العودة مرة أخرى؟! أكانت تلك النفخة الأولى التي يستيقظ فيها من في القبور؟! واليوم جاء الحساب؟! ثم الخلود في جنة أو نار؟! في حرية أو اعتقال؟!

أمالَ (حسن) رأسه نحو الصوت القادم من خلف الباب، شعر بوقع قرقعة المفاتيح في قلبه، اخترقت دورة المفاتيح أذنه، قبل أن تخترق خرم الباب، جذب السجان الباب، ليرى (حسن) شاخصًا بصره نحوه ينتظره، فصرخ:

- أنتَ حسن؟!

- آه.

- تعال خبيبي، تحقيق.

أسنده إلى الجدار، ألبسه الغمامة المطاطية المحشّوة بالإسفنج، قيّد أطرافه الأربعة، جذبه من تلابيبه بعنف حتى باب مكتب المحقق، أجلسه على المقعد المعهود بلا ظهر، خشبه المهترئ، قوائمه الحديدية المعوجة، انتظر طويلًا، يشتم الرائحة النفاثة الجميلة، القبيحة، الزكية، النتنة، معمعة روائح، حتى كاد أن يختنق من الأفكار والهواجس والتنبؤات قبل الروائح المقزّزة.

جاء الوعد، انتصب واقفًا، سرى الدم في عروقه، صعد تلك الدرجات، صفق الحارس الباب خلفهما، أجلسه على ذاك الكرسي، القيد في أرساغه، وزاد قيدًا جديدًا، يجمع يديه بقدميه، ثم بسلسلة إلى حلقة فولاذية في أرضية المكتب.

وصل المحقق، زاد على حقده، وحيله، وخداعه، ابتسامةُ شماتة بحال (حسن) وما حدث له، فحين يبكي الشجاع يضحك اللئام.

- أهلًا وسهلًا (حسن)، لا تحكي خبيبي، إحنا رجّعناك؛ لأنه فيه معلومات جديدة، جماعتنا اللي بيشتغلوا معنا وصّلولنا، وبلّغونا بتطورات جديدة.

- ،،،!

- وحتى تفهم أكثر، إنتا في السّجن عند جماعتك، كتبت هاذي الأوراق، وضحك عليك صاحبك (مراد)، وخلّاك تقع في الفخ وتعترف ع كل شي، وهاذا توقيعك، يعني لا تغلّبني خبيبي، وما تفكر.

أخرج الجبان الأوراق إلى (حسن)، اقترب منه، رفعها أمامه، كبطاقة حمراء في مباراة كرة قدم، و(حسن) متمسمر في مكانه، مثقل بقيوده، كخيمة تشدّها الحبال من كل جانب، خشية أن تحلّق مع الرياح، يتصبّب عرقًا، يحاول تجفيفه ومسحه بكتفيه، لا يقوى على الكلام، معمع قليلًا ثم عاد لصمته من هول صدمته، صمت صمت القبور الدارسة، يرفض كل شيء، الاعتراف، التوقيع، الكلام، النقاش، حتى يئس الضبع منه، فأرسله إلى

الضبع الأزرق، ذاك الشرطي الذي لم يرَ غيره، الذي بدوره أعدَّ له لائحة اتهام، مستكملًا اللائحة الأولى، و(حسن) ينظر ويسمع، ويرفض التوقيع أو الإجابة، فلم يكترث الخبيث، فاصطحبه إلى التصوير الفوتوغرافي، ثم البصمات، تحولت أطرافه إلى أداة طيعة، يغمسها اللئيم في الخبز، ويدفعها على ورقة، يقلّب كيف يشاء، حتى أخذ مُراده، ثم أعاده إلى زنزانته ولحده.

استلقى (حسن) أرضًا بعينيه الجاحظتين الشاخصتين إلى سماء مدفنة، أسند ساعده الأيسر فوق جبينه، وكفّه الأيمن يعتلي سرّته، مركز طاقة جسده، منها كان يتغذى في رحم أمه، يشعر بالحرارة التي تنبثق منها كالحمم البركانية، يتذكر جدّته وهي تعالج الأطفال الذين ترتفع حرارة أجسادهم، بحمامة بريئة تنتف الريش من أسفل ذيلها، فتضع مؤخرتها في تجويف السرّر، لتمتص حرارة المريض، فتهبط حرارة الجسد كأنها اكتشفت مركز طاقة الإنسان قبل أن يكتشفه علماء الجسد والطاقة، حتى أنها لتضع قطرات زيت الزيتون في السرّة؛ لتعالج أمراض الأعصاب والمفاصل، لربما أنها اعتقدت كما أن عنق السرّة التي تجمع فيها أشياءها هو مركزها، فإن السرة هي مركز الجسد الذي تجتمع إليه كل خلاياه، ثم جاء العلماء واكتشفوا أن في السرّة آلافًا مؤلفة من البكتيريا النافعة التي تستخدم في صناعة الجبن، ثم وجدوا أن للسرّة أشكالًا وأحجامًا وكل شكل له دلالته، فهذا يدل على الخصوبة، وذاك يدل على السمّنة، مرض الربو، ضعف العضلات، الفتق، إلخ.

ظلَّ مُسجّى على الأرض كجثة هامدة، نسي أهله وما كان يفكّر فيه، نسي الحريّة، وقلق العائلة، أصيب بالزهايمر دفعة واحدة، كأن الحياة بدأت

معه من توّها، لا يتذكر إلا صديقه الجاسوس الخائن _كما يظن_، أي ذنب يغتفر إلا الخيانة، ما المبرّر الذي يجعل (مراد) يبيع نفسه؟ ويعمل لصالح عدوّه، وإن كان ضعف! فكيف له أن ينْصب لي شركًا؟! لأسقط فيه، لماذا لم يحذّرني كما حذرتُ النزلاء في (مجدو)؟! لماذا لم يخبرني؟ اسودّت الدنيا أمامه، لم يجد لصوته سامعًا، ولا لأسئلته مجيبًا، شارد الذهن حيران، يذهب بعيدًا ويعود قريبًا، يصل نصف الطريق، ويقطع، وعودة إلى ذي بدء،

في نسخة طبق الأصل، كمثلث متساوي الأضلاع، انطبق على أخيه، فأصبحا اثنين في واحد، بزواياه الثلاثية المتساوية، خرج من مدفنه، ومشى رسيفًا، إلى المقعد الخشبي المهترئ، في مكتب اللص المحتال، اختلف المثلث قليلًا فأصبح بزاوية قائمة _تسعون درجة_، لكنه بقي مثلثًا، أفصح المحتال عن خبيئة نفسه، وأخرج أوراقه وعرضها أمام (مراد).

- هاذي أوراقك اللّي كتبتها عند تنظيمك خبيبي، وإنتا في السجن، إخنا مسكناها في الخبز، كانوا بدهم يهربوها لبرّة، هذي أوراقك ولّا لاء؟!

- لا مش أوراقي.

- لاء هاذا خطّك، لا تتزاكى خبيبي، هالحين بنجيب خبير الخط، وهوَّة بيقرّر، إذا إلك أو مش إلك.

- ،،،..!

- امضي هون، تحت، وروخ ابصم واتصور، وارجع ع زنزانتك.

- ع شو أمضي؟! أنا ما بمضي على إشي أنا ما بعرفو.

- تمضي أو ما تمضي زي بعضو، بس أنا بأنصحك تمضي أحسن؛ علشان محاميك يقدر يساعدك.

مرة أخرى صدَّق (مراد) المحتال، ووقّع الأوراق، ثم أرسله إلى ضابط الشرطة، الذي أخذ أقواله مرة أخرى، وأكمل لائحة الاتهام، وقَّعَ، وبصَّم، وأعاده إلى مدفنه.

ما بين كل كلمة وكلمة، جملة وجملة، عبارة وعبارة، فعل وفعل، مرحلة ومرحلة، تمر الدقائق، وغالبًا الساعات، وأحيانًا الأيام من الانتظار وأفاعيله.

جالس ينظر إلى الأفق، وأي أفق تحمله هذه الجدران، تربّع وسط قبره ونصب مرفقيه إلى فخديه، وأسند كفيّه إلى صدغيه، وأسقط برأسه بينهما ينظر أرضًا.

أرجع شريط التسجيل قليلًا، فنخرت ذاكرته فكرة أدرك من خلالها مصيبته، بل مصائبه، فندب حظه على ما صنع بنفسه، لكن هذا يُحتمل ويُطاق، فالضرر عائد إلى شخصه، لكن أنّى له أن يغفر لنفسه خطيئتها بحق صديقه، ودخل في حيص بيص، وتعقبته الهموم، ولم يستطع أن يكبح صرخاته ودموعه، يبحث عن خيط يتشبّث به، أو حبل نجاة ليجد بداية لما يدور، ويحوم برأسه وفوقه، فلا يجد في النهاية إلا الهواجس والندم والدموع التي بدأت تنهمر من مدمعه.

العبارة الخارقة الحارقة، الرصاصة المدمرة المزلزلة التي لم ولن تفارق عقله وذاكرته، أنه الآن أصبح جاسوسًا من وجهة نظر صديقه، فكيف سُيثبت براءته؟! لا بدّ أن الخبر قد انتشر انتشار النار في الهشيم، فكيف سيقابل الناس؟! وماذا سيقول؟! من سيصدّقه؟! من سيكذّبه؟! فأصبح في وضع وحالة لا يُحسد عليها، كما لو كان يسير في التيه قبل أن يصل أربعين سنة فأين المفر؟!

ستكتشف الحقيقة يومًا، وستعرف أنك وصديقك أسدان غدر الزمان بهما.

لا تأسَ من غدر الزمان فطالما رقصت على جثث الأسود كلابُ.

ما خطبها تعلو على أسيادها؟! الأسدُ أسدٌ والكلابُ كلابُ.

21

العُزْلَةُ مَمْلَكَةُ الأفْكَارِ

لقد أودع الله في الإنسان قوةً إدراكية، وميزّه بهذه القوة عن بقية المخلوقات، وهذه القوة الإدراكية تستلزم طلب الحقيقة، فقد خلق فيه حاجة عليا للمعرفة، وما لم تُلبَّ هذه الحاجة العليا، وما لم يبحث الإنسان عن الحقيقة، وما لم يبحث عن سر وجوده وعن غاية وجوده، وعن أفضل شيء يمكن أن يفعله في وجوده، فقد هبط من مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به.

وهذا البحث يحتاج إلى هدوء، والهدوء لا يتحقّق إلا بالخلوة، والخلوة لا تتحقق إلا بالحلوى عند الوضيع، ولا تتحقق إلا في الكهوف وفوق القمم عند الشريف؛ ليستقبل الأشعة التي تبين إمكانياته، وتظهر أهدافه؛ ولتَخرج الهالة من جسمه _فيما بعد_ لتشرح تجاربه الماضية والحاضرة.

لذلك تجد كل باحث عن الحقيقة يعتزل الناس، يجوب الصحاري والقفار، يعتلي قمم الجبال، يبني الصوامع، يحتمي بالكهوف، فلم تتنزل الرسالات السماوية على أنبياء الله إلا في الغار، المقطم، الكهوف، أو الأماكن النائية.

حالة منذ آدم عليه السلام، حفظ التاريخ الأسماء، وحفظت الطبيعة الأمكنة رغم تقلباتها، وبقيت الجبال بكهوفها، والقفار بحجارتها شاهدة، ومن أراد منها أن ينقّض إقامة الإنسان ليصمد أمام عوامل التعرية والكوارث الطبيعية، كما قرأنا عن البيت الحرام، وبيت المقدس، وكنيسة المهد والقيامة، وكذلك القلاع والحصون العديدة.

كان (الشيخ) يبحث عن هذه الأماكن، فوجد ضالتّه عند الرّهبان الذين وجدوا ضالّتهم قبْله في كهوف وجبال فلسطين، في (دير القِلْط) أو (دير السّان جورج) أقدم الكنائس في فلسطين، وإن كان غير مشهور منذ القرن الخامس الميلادي 480م، وكانت في هذا الوادي معالم الحياة منذ القرن الثالث ق.م.

سفوح الجبال كأنها زاوية قائمة، شديدة الانحدار، أسفلها (وادي القِلْط) الممتد لمسافة 45 كم بين أريحا والقدس، فيه امتزاج الحضارات،

عدد كبير من الأديرة، المقامات الإسلامية، شرقًا ترى قرية (النبي موسى)، وغربًا قصر هشام، وبينهما كنيستان.

وسط المنحدرات الصخرية، تجد الكهوف، أماكن عبادة الرهبان الذين يبحثون عن الخلوة، الانخطاف، الخشوع، والجمال، فزادوا وزرعوا الوادي المليء بالينابيع والعيون (عين قارة، عين الفوار، عين العجوز «التي فيها نبع العكبة ونبع العروس»، عين معقر، عين وادي القلط) خمسة عيون تغذي المنطقة.

وجدوا ضالتهم، شعروا بلذَّة عبادتهم، ورأوْا النور، وصَلُوا إلى الانخطاف، كما حدث مع (سيرابيون) الذي وصل إلى مرحلة الانخطاف حتى أنه لم يشعر بمن حوله، كان جسده في مكان وفكره في مكان آخر، عاش معه الفأر حتى أصبح يؤذيه، حتى أشاع الحساد أنه أصيب بالخبل والجنون كما تروي الروايات.

زارهم (الشيخ) ولم يكن ضيفًا، أُغرم بالطبيعة وجمالها، فهي قريبة من سكناه، يحفظ جغرافيتها، أكثر مما يحفظ قبيلته، يتمشَّى في قعر الوادي، يفكّر في عظمة ربه ومخلوقاته، يثبت لنفسه كم دقّة الصنعة تدل على عظمة الصانع، يستظل بظل شجرة أسفل الوادي، يصلي ما شاء الله له أن يصلي، حتى لا يشعر بمن حوله.

وتارة يجلس أمام (عين الفوار) يتفكر في مائها، أسمائها، يركض ببصره خلف الماء الذي يبدأ بالانحسار حتى يختفي، فيرى القعر على بعد بضعة أمتار، أين يذهب الماء بأسماكه؟، كأن الله خاطبها يا أرض ابلعي

ماءك، وكأنه أمرها وغيض الماء فاستجابت لأمر ربها، وما هي إلا دقائق ذات عدد، حتى فار التنور مرة أخرى، وفاض الماء بما جرى.

يجلس (الشيخ) يتّكئ على شقّة الساعات، يتفكر بحال الماء، ينطق باسم الله مجراها ومرساها، ويُلقي بسفينة تطفو على سطحها، ويتساءل عن حال الماء، فربما هذا عائد لعملية المد والجزر في البحر، أو ربما هنا نبع ماء نوح _عليه السلام_ وهنا غيض الماء واستوت على الجودي، وعلى أية حال فهي آية من آيات الله، ومعجزة من معجزاته.

ينظر إلى كهوف الرهبان المعلقة في الجبال، الراهب يدلي دلوه، ثم يعود إليه ممتلئًا بالطعام والشراب، كذلك كل صباح، برتابة حتى يعجز، فتكون هذه إشارة الموت، فيصعد إليه الرهبان، يجلبون جثَّته، يفصلون عنها رأسها، ثم يحتفظون به مع الجماجم في دير مجاور، ثم يدفنون الجثّة في مدافنهم.

(الشيخ) لا يكف الحديث عن هذا الوادي، جنّة الله في أرضه، أسموه وادي الجمال، ووادي الإرادة، الأرض التي أنشأ الله الإنسان منها واستعمره فيها.

يواصل الحديث ويُسهب في علاقة الأديرة بالسكان المحليين منذ الفترة العثمانية، عندما تمردّت المنطقة على دفع الضرائب، وعمّت الفوضى، فجمع السكان بناتهم وأرسلوهن إلى ديْر قريب، اختبأن حوالي الشهر، حتى سُمّي الدير بدير البنات، وهو يشبه دير البنات في مدينة المسيح، مدينة بيت لحم.

كلٌ يقدّس يومًا، المسيحيون يقدّسون يوم الأحد؛ لأنه اليوم الذي قام به يسوع من الموت _وفقًا لمعتقداتهم_، ويقدس المسلمون يوم الجمعة، يوم عيدهم الأسبوعي؛ لأنه خير يوم طلعت عليه الشمس، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة، فيه النفخة، وفيه الصّعقة، وما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلتها إلا وقاه الله فتنة القبر، ويفضلّون يوم الاثنين والخميس، أيام مباركة، تُرفع فيها أعمال العبادة إلى السماء.

كما يقدس اليهود يوم السبت، يوم الراحة، اليوم الذي استراح فيه الرب من الخلق _حسب معتقداتهم_ ومن حقّهم أن يستريحوا يومًا في الأسبوع كما استراح الرب يوم السبت، ويبدأ مساء الجمعة، حتى غياب شمس السبت، هذا اليوم الذي يعرفه كل مَن في مدافن الأحياء، في أقبية التحقيق، من طعامه وشرابه، فلا يشعلون فيه النار، ولا يلمسون أزرار الإنارة، ولا الكهرباء، يشعلون ما أرادوا قبل دخول العيد، ويبقى على حاله حتى نهاية العيد، يُعدّون الطعام يوم الجمعة، ويبقى على نار هادئة، طعام محدّد يسمونّه (حَمِيم)، بعضًا من البقوليات والبطاطس أو الجزر الكامل، ويُطبخ، وتُوزع معه قطع الخبز وشرائح الجبن والبيض البني البارد وحبّة من خضار أو فاكهة لليوم كلّه.

يستمر الشيخ (أبا جُبير) دون كلَل أو ملل، مساء كل ليلة، ليقطع الوقت قبل أن يقطعه بإلقاء المواعظ، يُعلّم الصلاة، كيفية الخشوع، طرد الشياطين وما توسوس به، ثم يرجع بذكرياته يقصّها على زملائه الراسخين بين الجدران، يقصّ تجاربه، يعرّفهم ببلادهم التي انقطعوا عنها بفعل الاحتلال،

الـذي قطـع الجغرافيـا بـين قطـاع غـزة، غـزة البـؤس والبـأس، والضفـة الغربيـة، ضفـة الزيتـون والفـأس، وقسَّـم وجـزأ، ومنـع أي شـكل مـن أشـكال التواصل، حتـى أصبـح الإنسـان غريبًـا في وطنـه، لا يعـرف عنـه مـا يعـرف اللـص.

لم يبـق أمـام (الشـيخ) إلا أن يُعطـي بعضًـا ممـا عنـده، فمتعتـه أن يُثـري الآخريـن بتجربتـه، فقـد تعـذَب مـا فيـه الكفايـة، وتجـرّع الآلام دون مـوت، وهـو يصـدع أحـدٌ أحـد، وسـيرد يومًـا إلى نـار الدنيـا قبـل نـار الآخـرة، فبئـس الـورد المـورود.

انتهـت مرحلـة العذابـات والآلام مـع الشـيخ، بقـي تحـت السّـياط وقسـوة الجـلاد حتى أدانـوه باعترافـات غيره عليـه، فلـم يعـد هنـاك حاجـة لأن ينبـس ببنـت شـفة، وقـد لاقى ألوانًـا مـن الجحيـم، فحلّـوا وثاقـه وأرجعـوه إلى القـبر الأكـبر، والحفـرة الأعظـم، المسـاحة، تسـع فرشـات ملتصقـة ببعضهـا، ودورة الميـاه تحمـل الرقـم (1) يجتمـع فيهـا كل مـن ينهـي مرحلـة التحقيـق، حتـى لـو تجـاوز العـدد عـدد الفرشـات فأصبـح خمسـة عـشر أو عشريـن حتـى لـو نامـوا ورديـات، أو عـلى جنوبهـم، أو مكدسّـين كالكنـب.

النـوم عـلى شـقّ واحـد بالتنـاوب، لا مجـال للنـوم عـلى البطـن أو الظهـر، أو مـدّ اليديـن، الغطـاء مشـترك، بطانيـات باليـة، فـلا للـدوران يمنـة أو يسـرة، الحديـث مشـترك، لا خصوصيـة، الإخـراج بـدون إحـراج، كل شيء مسـموع علنًـا، الأصـوات والروائـح، الذنـب واحـد، الهـم واحـد، الألم واحـد.

الحـمّام مـن الثامنـة صباحًـا حتـى الحاديـة عـشرة، الجميـع الأقبيـة، وكل واحـد ونصيبـه، فربـما ينفـذ الوقـت أو ينشـغل السـجّان، ويُؤجـل الاسـتحمام

للغـد، في أحـد الأزقـة اثنـان، متجـاوران، مسـتطيلان ببابـين منفصلـين، مفتوحين، ماء صدئ، وملعقة صابون سائل نتن، نصيب هذا القبر ساعة لكل فرد خمس دقائق.

لا ملابس لاستبدالها، الأهم الملابس الداخلية، فيوم يغسلها ويعلقّها على نتوءات الجدران، وفي الليل يُلبسها الإنارة لترتديها الاضواء فيخفت شعاعها، ويبقى بالملابس الخارجية، فيوم بها ويوم بدونها.

نُسبح من القرآن الكريم، يقرأ النزلاء ما شاء الله لهم أن يقرأوا، يتناقشون، يتسامرون، على مرأى ومسمع من الجميع، حتى يغزو النّعاس باكرًا عيني (الشيخ)، فيستأذن، فينام في الزاوية بعضًا من الوقت، تخفت الأصوات، مراعاة للنائم، وما أن يداهم النعاس أعين البقيّة حتى يستيقظ (الشيخ)؛ ليفُسح لهم مكانًا للنوم، فيجلس منكمشًا عند الباب، يخلو مع ربّه مع القرآن والتسبيح والذّكر، حتى ينفصل ويدخل الانخطاف، ويرى النور، ويزداد الإيمان، وتقلل الآلام، ويناجي رب الأنام، حتى يستيقظ النيام لصلاة الفجر، يسأل السجّان عن الوقت، فيؤذن، فينهض الجميع يضربون أكفّهم بالأغطية المغبرّة، أو بجدار القبر الخشن، ويمسحون وجوههم وأيديهم، يتيممون خشية الأمراض الجلدية، يصلوّن جماعة ثم ينام من ينام، ويبقى من يبقى للتسبيح والاستغفار والذكر.

ينادي المنادي من مكان قريب، من كوّة الباب، فيفتح ويغلق عشرات المرات في اليوم والليلة، يدخل هذا، يخرج ذاك لمقابلة ممثل الصليب الأحمر الدولي، يعود، يأخذ الثاني لمقابلة المحامي، يعود، وكل

واحد بنفس طريقة القيد، الغمامة، الأزقّة، الدرّج، الصراخ، عثرات الطريق، فهذا فرض عين، الثالث لاستكمال البصمات، يعود، فالرابع لأخذ صورة شخصيّة تحمل رقمه، يعود، الخامس للشرطة؛ للتعرف على بعض صور الأهل، الأقارب، الجيران، ثم السادس لاستلام الخبز من الزقاق، والسابع لجلب الطعام من نفس الزقاق، وواحدٌ بعد الآخر للاستحمام، ثم الثامن إلى أحد منظمات حقوق الإنسان، ممثليهم أو محاميهم، يعود، التاسع إلى المحقق لورود معلومة جديدة، يعود، العاشر نقلٌ إلى حفرة أخرى من حفائر الموت.

في اليوم التالي كالأول لكن تختلف الوجهة، فمن زار المحامي أمس، فاليوم يزور الصليب الأحمر، وغدًا الشرطة، وبعد غد الطعام، وقد يزور كل هؤلاء في يوم واحد، ودون جديد يكرّر ذلك في اليوم التالي.

يُفتح الباب كعادته، فيدخل الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر، بين كل واحد وآخر ساعة من الزمن، كالتي بين العائد من زيارة المحامي، وزيارة الصليب، الكل عائد من تلك المصيدة، من الشرك الذي نُصب له، فسقط فيه، من عند (العصافير) سواء من (إيشل) أو (المسكوبية) أو (مجدو) أو (عوفر)، ومثلهم هناك في حفائر موت (المسكوبية) و(الجلمة) و(بيتحتكفا) و(عكا) السري، ولا أحد يعلم عن أحد، لكنهم يسيرون على نفس خطا الرواية نفسها، فقط يختلف المكان والاسم، والجميع كما هنا في (عسقلان) ينتظرون الخروج إلى السجن، فمنهم من أمضى الأربعين يومًا، ومنهم من أمضى الخمسين والستين والسبعين، وقليل من يجوز ذلك.

22

مَـوْتَى عَلَى قَيْدِ الحَيَاةِ

جذب الضخم الباب الثقيل إليه بقوة، فكشف له عن نزلاء عشرة، نُحل الأبدان، جوع الأكباد، لم تترك لهم هموم الأيام إلا هيكلًا من العظم، تلمع في رأسه عينان جائعتان، لا يستقران في محجريهما إلا إذا استقر الزئبق الدحراج في قرار مكين.

دخل (يوسف)، فهالهم أمره، وهاله أمرهم، فقد كان منظرًا يستهوي القلوب القاسية، ويذيب الأفئدة المتحجرة كأنه وكأنهم أصحاب الكهف،

ولو رأى أحدهم نفسه بمرآة لما استهجن حال أخيه إلا أن العيون لا ترى نفسها إلا بمرآة، فنظروا إليه نظرات تمازجها الرحمة، وتخالطها الشفقة؛ لأنهم يعرفون موطن قدومه وما حل به في وكر الأفاعي التي لا ترحم، ولا تشفق، وهي تنفث سمومها داخل عقله وجسده وسنوات عمره، وما زال مفعول السمّ يجري في عروقه.

أنشأ يسألهم واحدًا فواحدًا، ما شأنهم؟ وما خطبهم؟ وهو يقف وقفة المستبسل المستميت خشية أن يكونوا أمثال السابقين، لا يدري ما يصنع بحاله، وظنّ بهم الظنون، واعتقد أنهم تَتَبع لذلك المسلسل.

أدرك (الشيخ) مكنونات نفسه، فكرمًا لا أمرًا طلب منه الجلوس والاستراحة، وهدَّأ من روعه، وذكّره بنفسه يوم أن التقى به أول مرة، وادّكر (يوسف) نصائحه، فازداد كمدًا وألمًا؛ لأنه لم يتعظ من تلك النصائح، وكانت الحيلة أكبر من أن يتصوّرها عقله الصغير. 188

من يرَ ابتلاءات ومصائب غيره يَهُن عليه ابتلاؤه ومصيبته، فقصّ (الشيخ) على (يوسف) العذابات والآلام التي رآها والجميع يشنّف آذانه، شاخصًا بصره، لا يريد (الشيخ) لـ(يوسف) أن يكون مع البائسين، ولا يصل إلى حد المنكوبين، فأسمعه ما تهوِ له الأفلاك عجبًا، وتخر له الجبال هدًّا، وشكا له ما يُقلق نفسه في عالمها، وسيزعج عظامه غدًا في مرقدها، شكا فوجد سامعًا، وبكى فوجد راحمًا، ليس بيده حيلة إلا الدعاء؛ لأن الحال سواء.

بدأت تتبدّد ظنون (يوسف)، وبدأ يطمئِنّ لهم، وقد تعلّم الدرس جيدًا، فلن يتفوّه بكلمة واحدة خارج النّص غير ما اعترف به، وما حدث

معه، يبحث عمن يواسيه، ويتنبأ له بالعواقب، ويستشرف له المستقبل، فهذا يهون عليه، وذاك يتنبأ له بالحكم عامين سجنًا، والثالث يتنبأ بعشرة، والرابع بخمسة عشر عامًا، كأنه المزاد، ويطول الشرح والتحليل، فهذا يقول عندك تنظيم، وذاك عندك تخطيط، والآخر عندك محاولة قتل وهذا أخطر البنود التي تصنّف بـ (51) (أ)، فلا يعرف من يصدّق؟ ومن يكذّب؟ وقْع صدمة الكذب، والخداع، والكارثة التي حدثت معه عند (العصافير) ما زالت ماثلًا أمامه جاثمة على صدره، جاثية عليه، لا يستطيع نسيانها أو تناسيها.

كل واحد بدأ يقص أجزاء مذكّراته مع اللصوص المحتالين، ويروي فصول روايته، وحلقات مسلسله، فلم يجدوا اختلافًا إلا في الأماكن وأسماء الشخصيات وألقابها، إلا (باهر) فقد كانت مشاهد مسلسله مكررة، في أماكن معدودة، بطريقة تختلف في الشكل عن سابقاتها، وتتفق في الهدف.

ألقي القبض على (باهر) متمنطقًا حزامه الناسف الذي حدث فيه خلل تقني، فلم ينفَجر كما خُطط له، فأصيب (باهر) إصابات بالغة في بطنه وأطرافه، نقلوه إلى المستشفى، بين الأحياء والأموات، وما أن بدأ يتعافى في مستشفى (بارزيلاي)، جاء المحقق يريد أن يأخذ إفادته، مستغلًا إصابته، مارس عليه كل أنواع التعذيب، منعه من الدواء، خلعَ الضمادات، داس على جراحه التي كانت لسانًا يشكو، لسانًا أنطق، وأفصح من لسان الرثاء، واصل المحتال، التهديد، الوعيد، النهر، الزجر، يتركه في غرفة بين المرضى، مكبلًا بالحديد حول أرسُغه، مثبتًا في أعمدة لأعمدة سريره، عن يمينه حارس، عن يساره آخر، خلفه سرير جميلة مريضة سرطان، أمامه مشلول على كرسيه المتحرك، من حوله الجميلات، ممرضات بلا حياء،

صباح كل يوم يأخذنه لقضاء حاجته، ثم الاستحمام، واستبدال الملابس، وإعادته إلى مكانه، عاملات النظافة العربيات، المحجبات، العفيفات، عجوز مريضة أمراض العجائز، كل من حوله عربي أو يتحدث بالعربية، ضباع بلباس الأسود.

الجميع يدّعي وصلًا بليلى، هذا يستغل الحراس ليطعمه مما لديه، شفقة عليه، والآخر يسأل عن حاله، وعاملة النظافة تهرّب له ما يريد من مستلزمات حتى هاتفها المحمول، اكتشفوا أمرها، طردوها من عملها قبل أن يضغط على أزراره، حزن (باهر) عليها حزن الثكالى، وصاحب الكرسي المتحرك يأخذ رقم هاتف والده، يكلمهم، ويطمئنهم عليه، وينقل الرسائل بينهم.

مكث الأيام ذات العدد وسط هؤلاء، ثقته تزداد بهم يومًا بعد يوم، حتى رحلّوه إلى مستشفى آخر (أساف هروفيه)، حزن على زملائه الذين تركهم، فكم كانوا كرماء معه، هنا لم يختلف الواقع كثيرًا، غير الشخصيات، المرضى، المحقق، ظل في رحلة علاجه، المحقق يمارس هواية السادي، المرضى والعمال يتعاطفون، يخاطرون لمساعدته ونقل المعلومات لأهله، قبل أن يبرأ ويتعافى، أنهوا علاجه، أرسلوه إلى أقبية التحقيق، في تلك المدافن، القبور، وجد أمامه كل المعلومات، القليلة والكبيرة، العظيمة والحقيرة، كل حرف همس به، بالساعة والدقيقة، والثانية واللحظة، وقبله اليوم، والتاريخ، وبعده التوقيع، حينها فقط أدرك الكارثة، فدارت به الغرفة، دوران الكرة الأرضية حول نفسها، في رمشة عين دارت أفكاره دوران الكواكب حول الشمس، كيف لتلك العجوز أن تخون؟! كيف لذلك المشلول المسكين على كرسيه أن يكون عميلًا؟! كيف لعاملة النظافة أن تكون (عصفورة)

قذرة؟! كيف نصبوا لي مصائدهم في (بارزيلاي)، ثم في (أساف هروفيه)؟ كيف صدّقتهم؟! ووثقت بهم؟! من صبَّ هؤلاء عليّ؟! قمّة التكلّف والتعمّل، الكذب والتمثيل، لم يحتمل قلبه الصغير تلك الأحداث، فعجز عجزه، سقط مغشيًا عليه، سارع الحراس لفك قيوده من المقعد والأرض، جاء الشيطان بلباس الملائكة، كما لا يقاس الحنان بالأحضان لأن هناك من يضحّك بين أحضانك ويطعنك من الخلف بخنجر الخيانة، تمامًا كما فعلت (العصافير) تلك مع الجميع، كذلك لا يقاس البياض بالنقاء، ولا السواد بالخبث، فالكفن أبيض، والكحل أسود، وبينهما يكمن الفرق، أخذ عرق يده اليسرى، ضغط عليه بإبهامه، نظر في ساعته، قاس النبض، أخذ ساعده، لفّ حوله الشريط، نفخ الأنبوبة نفخات متتاليات، قاس الضغط، أخذ السماعة بيده، وضعها على صدره، جمع أدواته، ثم صفعه بكوب ماء بارد، فاستيقظ مكفهرًا، ممتقعًا، شاحب الوجه، يتأوّه متألمًا بشدّة من وقع الحادثة، ابتلع لعابه بشق الأنفس، حاول أن يستجمع قواه، فسارع الحراس لجرّه أرضًا، زجّوا بجثته داخل هذه الحفرة، عند زملائه النزلاء، استمع إلى كوارثهم، مصائبهم، فهانت عليه مصيبته، وواساها بأن ما لا يمكن علاجه لا بد من تحمله.

نادى المنادي المعتاد:

- يوسف.

- آه، نعم!!

خرج (يوسف) يخمّن، ربّما محامٍ؟ صليب؟ حقوق إنسان؟ تصوير؟ بصمات؟ شرطة؟ تشخيص؟ مخابرات؟ تحقيق؟ تبخّرت كل الخيارات، عندما شعر بضوء الشمس تحت الغمامة، وأعدم كل معتقداته عندما أزال الحارس غمامته، وأزال الحديد من يديه، وأبقى ما في قدميه على حالهما، ورأى بأم عينيه قاعة محكمة.

لا تبتعد القاعة أكثر من دقائق معدودة من المشي رسيفًا، والانتظار أكثر عند البوابة، تستنشق رائحة محروقات العربات عند مدخل السجن، تلك المحكمة التي ربما يزورها الأسير مرة كل بضعة أيام، أو مرة في الشهر لتمديد فترة اعتقاله على ذمّة التحقيق، وربما لا يزورها نهائيًا، ويُمدّد غيابيًا ينوب عنه محامي دولة أو النيابة نفسها.

ظل واقفًا، ينظر إلى القاعة، دخل القاضي، المحامي!، فالذي عيّن هذا عيّن ذاك، إنها (الدولة)!، انبرى إليه المحامي، و(يوسف) لا يعي ما يدور، أخبره: تمديد سبعة أيام على ذمّة التحقيق، وبعد السبعة الأيام، شيك مفتوح، أي تبقى في السجن تزور المحاكم إلى حين إصدار قرار الحكم، ثم وقّع، ختم، وكذلك القاضي، وتبادلا الأوراق، لم يستغرق المشهد كله أكثر من خمس دقائق!

وسط هذه المعمعة، استقبل الحضور الضيف الجديد (حسن) الذي تمسمر مكانه كصنم عند الباب، كمن رأى شيطانًا على هيئته الحقيقية، فدفعه السجان قليلًا من ظهره، فتقدم خطوة، ثم أغلق السّجان الباب وانصرف، فأسند (حسن) ظهره للباب، ولم ينبس ببنت شفة، فبادره الحضور:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ودون تفكير منه قال: السلام عليكم.

فكان من أمره ما كان من أمر (يوسف) من قبله، وكان من حاله ما كان من حال كل قادم جديد، عائد من مصيدة (العصافير)، وما زال وقْع الصدمة يؤرّقه ويؤلمه، فانبرى إليه الجميع هذا بكلمة مواساة، والآخر بوصية الحق والصبر، هذا يداعبه وذاك يمازحه، حتى بدأت مظاهر الابتسامة تشق شفتيه.

جلس وسط قبره كالمولود في البيت، يخلق دائرة مغناطيسية يكون مركزها الجاذب، تدور في فلكه على مدار ساعات اليوم، يتبادلون أطراف الحديث؛ ليُخرجوا (حسن) من حالة الإحباط واليأس والقهر إلى حالة الواقع والصبر والأمل؛ لأن الأمل هو قوة الضعيف المستعصية على المقايضة، ففي الأمل ما يكفي من العافية لقطع المسافات الطويلة في اللا مكان الواسع إلى المكان الضيق، وداوَوْا جرحه، حتى أصبح يرى البعيد يقترب، والمُغلق يفتح.

الأهم أن ظنونه بصديقه (مراد) ذهبت أدراج الرياح، وأدرك أنَّ صديقه سقط في الفخ، ولم يكن يعلم عِظم الكمائن المنصوبة، فهدأت نفسه، والتمس العذر له، وخفَّ الحمل عن كاهله؛ لأن بمقدور الإنسان أن يبتلع ويستسيغ غدر الغادر، وخيانة الخائن، لكن لا يستطيع أن يحتمل ذلك من الصديق والحبيب، فظلم ذوي القربى أشد مضاضة.

في أحد أزقّة المدافن، زقاق أوله باب ثقيل من الفولاذ، وآخره آخر، الأول يحمل الرقم (10) والثاني يحمل الرقم (11)، دخله (مراد)

مصدومًا، كعادة كل جديد في هذا الحال، في هذا المكان، القبر قبر، المدفن مدفن، وإن اختلف شكله أو حجمه، طمر السجان (مراد) في القبر الأخير، ليجد (برشًا) إسمنتيًا عن يمينه، بسُلَّم حديدي، وآخر أمامه، نهايته يقطن في كل زاوية حمَّام، يقابله دورة مياه إفرنجي، ساحة بحجم ثلاث فرشات، من الجدار إلى (الأبراش) إلى طرف المرحاض والحمّام.

تقدّم (مراد) ولم يجد مكانًا لخطو قدميه، بعد أن نزل النزلاء من فوق (أبراشهم) وقام الجلوس من على فراشهم، الجميع استقبل (مراد) بالابتسامة والأحضان الحارّة _رغم جهلهم من يكون_ فمنهم صاحب التجربة، فتذكّر تلك الصدور التي احتضنته، ولفّت أيديها حوله وضمّته، ثم طعنته بخنجر الخيانة، وبادره الزملاء بالسؤال عنه، والتعريف بأنفسهم.

كأنّه جثة هامدة في أحضانهم، يفكّر كيف لهذا القبر الضيّق، كل هذا الضيق أن يستوعب هذا العدد من الموتى، نُحل الأبدان، جوع الأكباد، كأنّهم الثوار القدامى، المطاردون في الصحاري والبراري، يُطارَدون، لا وقت لديهم لحلق لحاهم، أو ترجيل شعورهم، وقد نفذ طعامهم وشرابهم، ولم يبق لهم إلا رب السماء يحفظهم.

بدأ يتأقلم مع الواقع، وبدأت شفتاه تفصحان عن حالهما وآلامهما وأوجاعهما، تقصان القَصص، وتعلنان عن المصيبة الواقعة على رأسه، لفعله بصديقه، فهذه كبيرة لا تُغتفر، تركه الزملاء حتى فضفض، وهدأ روْعه، فقصّوا عليه قصصهم، فالقصص قنطرة العبور فوق نهر الزمن، وفيها العِبر، حتى ختموا له بأن هناك حقًا، وهناك باطلًا، وستظهر الحقيقة

يومًا، وسينتصر الحق؛ لأن الحق فوق الجميع، كالمضامين فوق العناوين، والمبادئ فوق الأشخاص، والمؤمنون بعضهم لبعض نَصَحة متوادون، ولا عليك من المنافقين الذين كان بعضهم لبعض غَششة متحاسدين، متآمرين، خائنين.

حتمًا صديقك الآن إن لم يأت لهذه الزنزانة، فسيكون في زنزانة رقم (1) وسيستمع لزملائه ورفاقه كما استمعت لنا، وسيعرف الحقيقة، فلا داعي للقلق والخوف والتوتر، فاستبشر (مراد)، ودعا الله وتوسل إليه، أن يكون ما قالوا حقيقةً وليس مواساة، وأن يكون صديقه (حسن) قد التمس له عذرًا، لكنه يريد أن يرى الحقيقة، ويقابل صديقه؛ ليقطع شكّه وفزعه الذي ما زال يصفر مثل الريح في أذنيه.

الجميع في تلك المصيدة كان يكذب، ويُمثَل، بقصد وبغير قصد، بحسن نيّة وبسوء نيّة، فالكذب حباله قصيرة ضعيفة، وسيظهر الصدق يومًا، وتصدع الحقيقة ليراها الجميع؛ لأن الحقيقة بين الكاذب والكاذب، كالحبل بين الجاذب والجاذب، كلاهما سينتهي به الأمر إلى الانقطاع، عندها يُعرف الصادق من الكاذب، والوضيع من الشريف، وسيُكشف يومًا عمن يناغي الأطفال حبًا، ومن يناغيهم كذبًا.

23

نِهَايَة أَمْ بِدَايَة جَدِيدَة،؟!

في هـذه القبـور المظلمـة التـي تُعشـعش فيهـا الرطوبـة عَشْعشـة علامـات الاسـتفهام في الـرؤوس، هـذه المدافـن التـي لا ينفـذ إليهـا شـعاع مـن أشـعة الرحمـة الآدميـة، ولا تهُـب عليهـا نسـمة مـن نسـمات الإحسـان البـشري، التـي تعُـج بهـا صرخـات موجعـة، تُـدوّي في جوانـب القبـور دوي المـوج الثائـر في البحـر الزاخـر.

هنا تنتظر الجثث المكدّسة، تَكدّس الكتب المهترئة في مكتبة قديمة مهجورة، في كل يوم وليلة يلجها النزلاء ذوو العدد، ويخرج منها مثلهم، ويبقى فيها مثلاهم، بين خارج إلى السجن وأقسامه، ومتنقّل بين قبور التجمع في (عسقلان) مثلًا حاملة الأرقام (1)، (10)، (11).

الكل أنهى هذه المرحلة (التحقيق) وما زال ينتظر، ويعدّ الأيام والليالي، وبرحمة الله وإحسانه تمر وتمضي، وما يُسهّل مرورها وجود (الشيخ) هنا، وأمثاله هناك، والصلاة، والمواعظ، والأغاني، وأناشيد الحب، والصبر، والوطن، والحديث ذو الفائدة، وتكرار الماضي، فحتى الكلام المكرر ذو فائدة؛ لأنه اكتشاف لعالم جديد، وزرع أمل في قلوب بائسة، ويحيي نفوس يائسة.

من اليوم، من الآن، ستبدأ تنظر إلى الأشياء بمنظور آخر، ستهتم وستعرف قيمة الأشياء التي لم تكن لِتُعطي لها بالًا، واهتمامًا، لولا واقعك الجديد، فالهواء النقي، الشمس الساطعة، الأمطار الغزيرة، البحر الهادر، الشوارع المليئة بغبار إسمنت الأبنية المنهارة المدمرة، الحمار على قارعة الطريق، الديك يطارد الدجاج، الأغنام في مراعيها، الإبل في مرابضها، الكلاب في حراسة حدائقها، القطة مع صغارها، نبتة (القُرّيص) جانب الوادي، (الفطر) تحت الأشجار، الندى فوق الأوراق، رائحة البنزين والسولار، حتى حصان ميْت، جيفة تأكلها الديدان بجانب مكبّ النفايات رائحة، مزرعة الدواجن، رجيع رضيع على ملابسك، بول طفل على قدمك، اللّعب في الوحل والطين، أو في مجاري الصرف الصحي في المخيم وأزقته، أطفال المدارس في السابعة صباحًا، صورة فوتوغرافية.. السماء

بأجرامها، ستعرف قيمة هذه النِعّم، وسيشُوقك منظرها وإن كانت عاديّة أو مُقززّة، فما بالك برغيف خبز طابون، مع زعتر وحبة زيتون، في موسم البيدر أو قطف الزيتون، أو حُضن أم حنون، أو النوم فوق أزهار الحنّون.

إذا كنت فوضويًا أو عاديًا، هنا ستتعلم الانضباط، الالتزام، الإيثار، الطّاعة، النّظام، الترتيب، النظافة، الاعتماد على النفس، من الآن تصقل الطباع الخشنة، تُنار النفوس المظلمة، تُهذب الأخلاق الجافية، ترق القلوب القاسية، توسّع الصدور الحرجة؛ ليتمكّن كل واحد من التعايش، التأقلم، الانسجام، الانخراط مع الآخرين في هذا المجتمع _إن أراد_ وإلا فستنقلب الموازين، رأسًا على عقب، ويزداد السوء سوءًا، والسواد سوادًا، والعتمة ظلمات، وسيعيش بين زملائه شقيًا منبوذًا.

الجميع ينتظر ساعة الصفر، كما ينتظر المحكوم بالإعدام مقصلته، يترقبون المجهول، تُفتح الأبواب عشرات المرات، وتغلق دونهم، لا يعرفون سببًا لانتظارهم، أو موعدًا لخروجهم، حتى يأتي اليوم الموعود، يخرج الواحد منهم إلى القيد والغمامة، والأزقّة التي افتقدها، فمنذ أيام لم يرها، حتى يصل غرفة التفتيش والانتظار، يفتش من شعر رأسه إلى أخمص قدمه ليتأكد اللصوص أنك أنت أنت، وأنه هو هو، لا أحد غيرك أو غيره، ولم يتقمّص أحد شخصيتك أو شخصيته، يستبدل بذلة السجن البُنية البالية بأخرى جديدة، يستلم حقيبة بنيّة أو سوداء من القماش أو الجلد، عليها كما على صدر قميصه، شعار السجون المكوّن من حرفين، ملابس داخلية، خارجية، غطاء فرشة (وجه)، ومعلقة، ومعجون أسنان، ومعجون حلاقة؛ لأنه معدوم، وأشعروه بالمعروف، بعد أن أطعموه حطب المعكرونة،

وجرّدوه من كل معلومة، وأسقطوه في فخ كلماتهم المعسولة، ثم تركوه في غيابة الجبّ يُمعمع ويصرخ، ليلازمه الشعور أنه ما زال وسط المعمعة.

انتظر في قاعة الانتظار (الأمتناه) أسوأ من الجبّانات، الفرق، لونها أبيض، أو مائل إلى الأصفر، جدرانها ملساء مطلية بغبار السنين، أسماء ورسومات الراسغين، وقضبانها الفولاذية التي تشكل مقعدين طويلين مستطيلين، يرتكزان على جدارين من جدرانها، حتى انتهى اللص والباحث عن الممنوعات، وأي ممنوعات ستخرجها تلك المدافن،

انتهى من بحثه وتفتيشه من عدد من النزلاء، المُرحلين، تأكد من كل واحد أنه هو هو، لا غيره، وّزّع عليهم المسموح من ملابسهم المدنية وأحذيتهم التي صادرها عند القبض عليهم، وخزّنها في مخزن الأمانات، كلٌ باسمه ورقمه، وأرجع إليهم ساعاتهم اليدوية المسموحة، ثم دوّن لكل واحد منهم الممنوعات، كالهوّية، جواز السفر، المحمول، الساعة الثمينة، أما الرخيصة فقد استلمها أصحابها، وأي مبلغ مالي، الجاكيت، بنطال الجينز، بلوزة الصوف، الحزام، الخاتم، ثم زمهّا في صُرّة، ختم على الورقة، وقّع، احتفظ كل طرف بنسخة، وكلٌ عرف ما له وما عليه.

انتظر حتى جاء سجّانو السجن، واصطحبوا كل أسير إلى قسم، وتمّ استقبال كل واحد فيهم، كما استقبال (العصافير)، ومسئولهم، لكن هناك الخديعة، وهنا الحقيقة، دخلوا (عسقلان)، تبعثروا على أجنحته وأقسامه، قسم 11، 12، 3، 4، إلخ.

وكل قسم بغرفه الصغيرة التي تتسع لخمسة (أبراش) أي عشرة نزلاء، أو الكبيرة التي تتسع لعشرين (برشًا) بقدرة استيعابية لأربعين نزيلًا.

وهنا بداية جديدة، وليس نهاية، وحياة حديثة بفصولها، حلقاتها، أجزائها، نظامها، التزامها، أحزابها، تنظيماتها، بسجنائها وسجانيها والعلاقة بينهم، واقعٌ تحتاج إلى الأشهر والسنوات لكي تلمّ بجميع جوانب أجزائه، وفصوله، وتاريخه.

* * *

الفاجعة التي قرّبت (يوسف) من (أحمد) عندما افترقا على الحدود، الأول في طريقه إلى القبور، والأخير في طريقه إلى القصور، هي نفس الفاجعة التي قربّت (مراد) من (حسن) فأصبح كل اثنين منهما كأخوين أليفين، رضيعي ثدي، ضجيعي مهد، فليس كل من أنجبت أمهاتنا كان أخًا، وليس كل من قال أحبك صار حبيبًا، فالأخ في خوفه، والحبيب في غيرته، كما المطرب في ذوقه، والمؤمن في قلبه.

ثم ضربهما الدهر بضرباته، فالأولان افترقا إلى الأبد في الحياة الدنيا، فبعد أربعين يومًا، بالتمام والكمال، من يوم ذلك الفراق، مالت شمس (أحمد)، وأخذت بالانحدار، بعد أن عاد إلى غزة العزّة والإباء، وفي ريعان الشباب، دون سابق إنذار، دون مقدّمات، أفلَت شمسُه، الموت لا يستأذن أحدًا، لا يحابي أحدًا، إذا جاء الأجل، لا يتأجّل ولا يؤخّر، إلى اللّحد، حياة البرزخ، ثم إلى محكمة ساحتها القيامة، جنودها الملائكة والزبانية، قاضيها

العدل، شهودها الجوارح والأعضاء، الحساب فيها بالخردلة والذرة، ثم إلى جنّة عرضها السموات والأرض، تصعد إلى المنزلة التي كتبها الله لك، أو تهبط إلى النار، لتستقر في إحدى الدركات التي أوصلتك أفعالك إليها، مات (أحمد) موتةً واحدة، وما زال (يوسف) يموت كل يوم مرات.

أما الأخيران، فقد احتضنهما الدهر بأحضانه فاجتمعا، ولم يُكتب لهم الفراق بعد، في ساحة سجن (عسقلان) كان (مراد) يتربّع أرضًا على سجادة صلاة، يستمتع بحرارة شمس ذاك الصباح، وهي تداعب جلده، وتعيد إليه حيويته، حتى دخل عليه (حسن) دون أن يراه، اقترب منه خلسة، حتى انتصب أمامه، فرأى قدميه، ثم رفع رأسه، فوجد صديقه (حسن)، فأعاد مُسقطًا رأسه إلى صدره، ذرفت دموعه، وما بكى إذ بكى إلا لأنه شعر بخطيئته، وعظيم ذنبه، لم يستطع أن يرفع عينيه في وجه صديقه، أو أن يواجهه، وضاعت الكلمات، وخانته العبارات.

سارع (حسن) وجلس القرفصاء، ضمّ صديقه إليه بحرارة، وقبّل رأسه، وربّت على كتفه، وانهال عليه بكلمات الحب والمواساة، وصبّره، ولم تجف دموعه، حتى سامحه صديقه، وأعلمه أنه مُتفهّم لما حدث معه، ثمّ أفلته ونظرا لبعضهما نظرة رحمة وشفقة على حالهما، وقاما يدوران دورة الكواكب والنجوم، يعيدان ما كان من أمر الستين يومًا التي مضت بآلامها، وأوجاعها، ومرارتها، وعلقمها، وسوادها، يخططّان لبداية جديدة، يحلمان أحلامًا مديدة، امتداد عمرها الغامض، في عالمها المجهول.

في نفس المكان، في هذه الساحة، تعرّفا على (الشيخ) الذي لم يبخل عليهما بنصائحه، بعد أن أمضى التسعين يومًا في تلك الأقبية، كما التقى (الشيخ) بالذين اعترفوا عليه، وفتحوا مغاليقه للعدو، وسيقضي سنوات طويلة، مما تبقى من عمره القصير الذي أوشك على الأفول، بسبب ما أفصحت عنه ألسنتهم من أسراره ومكنونات نفسه الثمينة.

واصل (الشيخ) هدفه في الحياة، جميع المستجدين، تحلّقوا حوله في حلقة كبيرة، تراقبهم كاميرات المراقبة أعلى الساحة، وهم يبحلقون فيه، ويشنّفون آذانهم، وهو يوصيهم، ويستشرف مستقبلهم بخبرة المعلم العارف، والخبير المجرب، والطبيب المعالج، لسانك حصانك، إن صنته صانك، وإن خنته خانك وإن أهنته أهانك.

أنتم الآن في بداية مرحلة جديدة من أعماركم، في محطّة من أعقد محطّات دنياكم، لكل زاوية في السجن آذان، ليكن سمعكم وصمتكم، أكثر من حديثكم وكلامكم، أليس الذين استحقوا الهاوية هم الذين صدق فيهم قول الله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: 212]، فالصمت مهارة، عليكم أن تُتقنوها.

ليكن الكتاب صديقكم، فخير جليس في هذا الزمان كتاب، تعلموا منه على أيدي المعلمين، تعلموا لغة عدوكّم؛ لتأمنوا مكره، ثمّ انطلقوا إلى ما تحبّون من العلم، ستجدون المدرسين، افهموا منهم؛ لأن من كان شيخه كتابه، كان خطؤه أكثر من صوابه.

لا تفكّروا كثيرًا بقضاياكم، الواقعة حدثت وانتهت، كل شيء يبدأ صغيرًا ثم يكبر، إلا المصائب تبدأ كبيرة ثم تصغر، المحامون سيتابعون ويهتمون، وسيتواصل معهم أحزابكم وتنظيماتكم في الداخل والخارج، فقط فكرّوا كيف تستغلون أوقاتكم، والاهتمام بصحتكم، احذروا البرد، فلا تتكئوا إلى الجدران التي تتصبّب عرقًا من الرطوبة، لا تتعودّوا النوم الكثير، النوم مكْسلة، الرياضة منْشطة، أفضل عادةٍ في السجن أن لا يكون لكم عادة، غيّروا، بدّلوا، نوّعوا حتى لا تملّوا، إذا تعودتم على النشاط بأشكاله ستبقون إلى آخر يوم نشطاء، والعكس.

غذاء الجسد الريّاضة والطعام، غذاء العقل الكتاب والعلم، غذاء الروح الدعاء والصلاة، والصلاة لا تكتمل إلا بالخشوع والانخطاف والانفصال والانتقال من عالم الأرض، والطيران إلى عالم السماء، وإذا اختل أي أساس من هذه الأسس الثلاثة، فسيختل ميزان حياتك كلها، كالقِدْر لا يجلس إلا على ثلاث أرجل.

بعد أسابيع، أو أشهر قليلة، وسعيد الحظ منكم بعد أيام، ستزورون أهليكم، فإيّاكم أن تقصّوا عليهم معاناتكم وآلامكم، داروا دموعكم، سيطروا على عواطفكم، تحكمّوا بمشاعركم بابتسامةٍ، استقبلوهم بالمزاح داعبوهم، فالزيارة الأولى، اللقاء الأول، هو الذي يترك الانطباع الإيجابي أو السلبي في ذاكرة ذويكم، فاجعل هذا الطابع أن يكون طابعًا إيجابيًا، على كل واحد منكم أن يُشعر أهله بأنه في فندق سبعة نجوم _لن يصدّقوكم_ خاصة الأمّهات والزوجات، حتى لا يمتْن كمدًا وحزنًا عليكم، فإن الانطباع المرسوم في ذاكرتهم، المحفور في رؤوسهم، أنّكم على دولاب

التعذيب المدجّج بالمسامير الحادة، والفحم الملتهب، وإن كان الدولاب أرحم من معاناتكم هذه، لكن حاولوا أن تغيّروا الفكرة في رؤوس ذويكم، رأفةً بحالهم، ورحمة وشفقةً بهم وعليهم.

رويدًا رويدًا، ستتعرفون على تاريخ هذه الجدران، وأفاعيلها بالأبطال، وتضحيات الشجعان، لتعضّوا عليها بالنواجذ على ما حقّقوا من إنجازات، وما حصلوا عليه من امتيازات، فكانت السجون كمدافن الزنازين، بدون فرشات، ثم خاض السابقون الحروب والمعارك ضد السجان في الاضرابات المفتوحة عن الطعام فانتزعوا من بين فكي الضبع الفَرْشات، الصابون، الوسادة والأغطية من الأهلِ، المعجون، التلفاز، الراديو، المروحة، القمقم، القرص الحراري، فمرض مَن مرض، واستشهد من استشهد، سيتم ترحيلكم إلى سجون الشَّمال والجنوب، إلى سجن (إيشل) في بئر السبع، وإلى (نفحة) في صحراء النقب، هناك استشهد علي الجعفري عام 1980م، وستتعرفون على السجون وأسمائها ومواقعها وتاريخها، فهي تزيد عن الثلاثين.

سأختم لكم بقصة الشهيد علي الجعفري؛ لأنه كان في (وادي القلْط)، الذي سمع مني بعضكم حكاية الوادي، قلت لكم حينها (للحديث بقيّة) والآن جاء وقت التتّمة، فسأتلو عليكم منه ذكرًا، فافقهوا قولي: دخلتْ مجموعة من الثوار الفلسطينيين عبر نهر الأردن، اجتازته كما اجتازت حقل الألغام، وكان منهم الشهيد علي الجعفري عام 1969م، وتجاوزت المجموعة العديد من النقاط، حتى وصلت شمالي (وادي القلط)، عندها اكتشفت أنها ملاحقة من قِبل سريّة عسكرية للاحتلال الصهيوني، يقودها

الملقب برجل المهمات (عوفر)، وما زالت صورته معلّقة في أحد كهوف الوادي، وحَوّلها الاحتلال إلى مزار؛ تخليدًا لِلِصّهم الذي تلطخّت يداه بدماء الثوار، واستشهد من استشهد، واعتقل من اعتقل، واصطحبوهم إلى أقبية التحقيق، عبر طائرة عمودية، ومنهم من ألقوه من الطائرة، وكان والدي شاهدًا على ذلك، ثم أُفرج عن المعتقلين في صفقة تبادل 1985م.

أمّا علي الجعفري، لم تنته مسيرة نضاله هنا كما الجميع، فواصل المسيرة في السجون، فقد خاض معركة إضراب 1980م، في سجن (نفحة الصحراوي) وكان أحد الذين تعّرضوا إلى التغذية القَسرية، مما أدى إلى دخول الطعام داخل رئته؛ فاستشهد بطلًا رحمه الله.

لم تكن هذه المعركة الوحيدة بل كانت هناك طائرة (حسن سلامة) التي ألقت الخلية على بعد 800 متر عن الأرض بسوء تقدير من الطيّار الذي كان من المقرر أن يعطيهم الإشارة للقفز على بعد 300 متر، فاستشهد أحدهم في الهواء، وألقي القبض على الخلية، التي كان هدفها إعادة هيكلة مجموعات الثوار في الضفة، ومهاجمة وملاحقة العدو في كل مكان، حسن سلامة ابن الضفّة الغربية، أما حسن سلامة ابن قطاع غزة، ما زال يقبع في السجن، بعد أن أذاق العدو الويلات.

إيّاكم أن تفقدوا احترامكم لأنفسكم، فإنّ أخطر ما في السجن، أن يفقد الإنسان احترامه لذاته؛ لأنه إن فعل، صارت رقبته بيد جلّاده، وصار يتقبّل منه الصفعة في وجه الكرامة على أنها قُبْلة في خد الرَضّى، ولم يكن الجاسوس جاسوسًا كـ (العصافير) _مثلًا_ إلا لأنه وقبل كل شيء فقد احترامه لذاته.

بضعة أيام حتى تفرّق القوم آحادًا، إلى سجون وجبّانات الشمال والجنوب، ومنهم من بقي؛ ليبدأ كل واحد منهم مرحلةً جديدةً من عمره، في باستيلات عدّوه، في عالم الظلمات، فلم تكن هذه النهاية بل كانت بداية جديدة.

* * *

إنَّ من الرزايا ما لا يُطاق احتماله، ولا يُستطاع تجرّعه، لكن (يوسف) مُجبر على أن يبدأ يعوّد نفسه أن تُغيّر من عاداتها، وتحوّل بعضًا من أفكارها، حتى تُواصل مسيرة الحياة، ولا ينقطع بها الحبل وسط الطريق، سيصبح مُمتصًا للصدمات، مستعدًا للمفاجآت، فلا يفْلت الإنسان من ظلمة الرحم إلا إلى ظلمة العيش، ولا يفلت من ظلمة العيش إلا إلى ظلمة الرزايا والمصائب، ولا يفلت من ظلمة الرزايا إلا إلى ظلمة السجن، ولا يفلت من ظلمة السجن إلا إلى ظلمة ظلم ذوي القربى، ولا يفلت من ظلمهم إلا إلى ظلمة القبر، ثم أنوار أو ظلمات، وكما قال (المنفلوطي): «ما أكثر هموم الدنيا، وما أطول أحزانها، لا يفيق المرء فيها من همّ إلا إلى همّ، ولا يرتاح من فاجعة إلا إلى مثلها، ولا يزال بَنُوها يترجحّون فيها ما بين صِحّة ومرض، وفقر وغنى، وعزّ وذل، وسعادة وشقاء، فإذا صحّ لكل مهموم أن يمقُت حياته، ولكل محزون أن يقتل نفسه، خلت الدنيا من أهلها، واستحال المقام فيها، بل استحال الوفود إليها وتبدّلت سُنّة الله في خلقه، ولن تجد لسنّة الله تبديلا، ولن تجد لسنّة الله تحويلا».

في أشهر معدودة، لم تتجاوز الثلاثة، فقدَ (يوسف) صديقه (عماد)، وما أن استفاق، حتى دخل حفائر الموت وعذاباتها وآلامها وأوجاعها

ومفاجآتها، وما أن استراح حتى فُجع بصديقه (أحمد)، فماذا تخبّئ له الأيام؟! وماذا سيكون الحال بعد سنة، حتمًا ستكون الأيام حبلى بالمفاجآت، وكل يوم سيخبر عن جديد، أناس في الشقاء، وأناس في السعادة، أيامه حُبلى بالتطورات، وهو يعلم أن أمه حبلى بالبنات، وأوشكت أن تضع حملها، لكنه لا يعلم أن أخته التي خطبت قد تزوجت، وحملت، واقتربت انتفاخة بطنها من اللّحاق ببطن أمها، وأخاه بدأ يبحث عن زوجة، لينفخ بطنها، غِيرَة من بطن أمه وأخته، وابنة عمّه طلبوا يدها، وعلى موعد مع زوجها؛ ليبذر زرعه بأرضها، لتلحق بركب نساء عائلتها، وابنة عمته بدأ جوع الحنان يداهمها، وشعور وجع الخوف منه يغزو جسدها، وهذا يزرع وذاك يحصد، أن يسمع الإنسان عن الموت أرحم بألف مرة من أن يرى إنسانًا يموت أمامه، (يوسف) لم يرَ الأموات، لكنّه رأى نفسه، رأى موت قلبه المعذّب إلا من ذكر الله، يجول بعينه، يدور بفكره، يُمعن النظر فيمن حوله من الحجر والبشر، كسجين بئر عميقة، خرج منها بعد ما يزيد عن أربعين عامًا، ودخل المدينة التي يذكرها صحراء جرداء، كأنه وُلد من جديد، سيتعلم المناغاة، ثم الكلمات الأولى حتى يصبح لديه لغة يتعايش بها مع هذا الواقع، يحاول السّيطرة على نفسه، لكن الدهشة تفضحه، جدران، أسلاك، قضبان، سجان، أسرى أمضوا العشرة والعشرين عامًا، لغة، علاقات، مجتمع مصغّر عن الخارج، بلغته الخاصة، وواقعه الأكثر خصوصية، لا يمكن أن تُشبّه حاله لا بطفل يكتشف الحياة، ولا بمنفى في صحراء سيبيريا عاد بعد خمسين سنة، ولا برائد فضاء يكتشف قدرة الخالق، ولا بغريب دخل المدينة، ولا بأصحاب الكهف، هو كما هو، ميّت

في الحياة الدنيا، يستكشف حياته الأخرى قبل الآخرة في مدافن سجّانيه.

زار (يوسف) المحكمة، استلم لائحة الاتهام، مترجمة إلى العربية، عاد بها إلى سجنه مهمومًا لما قرأ في أول صفحاتها، فطواها ولم يُكمل، في ساحة السجن أكمل قراءتها، عكسيًا، فرأى الشرطي الشاهد (دافيد كوهين)، والنيابة (أمير ليفي)، رفع بصره قليلًا، فرأى كلمات أثارت فضوله، فسارع الى بداية الورقة الأخيرة، يكتشف كذب عدوّه، يفرح لبطولة صديقه (عماد)، تظهر حقيقة الجبناء، اللص الذي يُخفي الحقيقة، أهذا ما فعله بكم (عماد) البطل الثائر، الذي لم يهب الموت، واجهكم وجهًا لوجه كالرجال، واختبأتم خلف تحصيناتكم كالفئران، واليوم تعترفون، وتهدون على أنفسكم.

البند الرابع: ماهية المخالفة/ محاولة التسبب بالموت عن قصد،

مخالفة حسب المادة (51) (أ) لأمر العمل بشأن تعليمات الأمن العام 1970م، والمادة (19) لأمر العمل بالمسئولية التامة عن المخالف (منطقة قطاع غزة) رقم (162) لعام 1968م.

تفاصيل المخالفة/ ، عماد أبو عيشة بقي في المكان، وحضرت قوّة من أربعة جنود وقائدهم من وحدة (شكيد) لمكان اختباء المتهم و(أبو عيشة)، ووصلت المكان مدّرعة، نزل منها ثلاثة مقاتلين، والذين وجدوا (أبو عيشة) يختبئ وراء تلّة رملية، وفقط فوهة بندقيته بارزة، وكانوا مكشوفين في منطقة مفتوحة، أطلق (أبو عيشة) صلْية نارية نحوهم، ومنها أصيب الجندي (أمير ليفي) بأربع رصاصات، رصاصة بيده اليمنى، ورصاصة بيده اليسرى، ورصاصه في الفخذ اليمنى، وشظايا في القدم اليسرى، قائد

القوة (جال هارتمان) أصيب برصاصة في ظهره، ورصاصة علقت في واقي الرقبة، في هذه المرحلة بسبب خلل في سلاح (أبو عيشة)، تقدم إليه قائد الفصيل، بدأت معركة وجهًا لوجه بين (أبو عيشة) وقائد الفصيل عدّة دقائق، (أبو عيشة) ألقى ثلاث قنابل يدوية باتجاه (أمير ليفي) سقطت قرب رأسه، لكن لم تنفجر، قائد الوحدة أخذ سلاح قائد القوة المصاب (جال هارتمان)، وأطلق النار على (أبو عيشة) حتى استشهد الأخير، في هذه المرحلة حضرت قوات أخرى، استُدعيت من قِبل (جال هارتمان)، ومشّطت المنطقة، ولاحقت المتهم 1 .هـ.

أخيرًا اعترفتم أيها الأوغاد، ولِمَ كل هذا الحقد من النيابة (أمير ليفي)؟! أهو نفسه الذي كان في المعركة؟! أم هو من أقاربه يحمل نفس الاسم؟! أهو تشابه أسماء ليس إلا؟! فليكن من يكون، المهم أن هذا الاعتراف أسعد (يوسف)؛ لأنه بمثابة وسام شرف لصديقه (عماد) ونيشان بطولة، رغم أن الوسام الأكبر هو وسام الشّهادة في سبيل الله والأوطان.

لم يكن (يوسف) يطرب لصوت الأغاني، فلا تعلَق مقاطعها في رأسه، لكن بين صباح وصباح، يستيقظ باكرًا، وقد علِقت في رأسه حِكمة، آية، حديث شريف، جملة جميلة، مقولة ثمينة، اليوم يدور وحيدًا، في ساحة سجنه، يحبّ الوحدة، الخلوة، السّير مع ذاته، الحديث مع نفسه، شارد الذهن، يردد كلمات لا يعرف مصدرها، ولا تتمتها، علقت في رأسه كما تعلق مقاطع الأغاني رؤوس من يطرب لها، أحبّ أن أدفن وحدي، لا قبلي ولا بعدي أحد، ينظر من حوله، وإذ بالكثيرين دُفنوا قبله هنا، كما دَفن مَن قبله هناك، وكل يوم يدفنون من بعده، فكل يوم يموت الملايين، ويولد

الملايين، ولا أحد يعلم بهم، ليس المهم مَن أنتَ حين تولد، لكن المهم من أنت حين تموت، ترعبه هذه الكلمات، يستذكر، يؤلّف، يخربط، يكسّر اللغة، فلا أحد يسمعه غير نفسه، اكتبوا فوق قبري، كان هنا، ومّر عابرًا، كأنه شعر أحمد الشهاوي؟!

لا يعلم من أين هذه الكلمات، وهذه العبارات، ادفنوني واقفًا، إذا ما متّ، فادفنوني واقفًا؛ لأنني قضيت كل حياتي راكعًا، يا لهذا القول الغجري القديم، صحيح قضى (يوسف) عمره راكعًا، لكن أي ركوع هذا الذي يحمله من لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، إنه الفلسطيني، يكبر في غير أوانه، هوسه بالخشوع والانخطاف والتدرب عليه جعله يحب الوحدة، والعزلة، ونجاحه بالخشوع جعل أفكاره تطير بعيدًا، إلى استكشاف المستقبل الغامض البعيد، اليوم يقول هذه العبارات؛ لأنها علقت صدفة بظهر لسانه، وربما يكشف له المستقبل يومًا عن خبيئة نفسه، فيردّد حينها هذه الكلمات بقصد، ومن صميم القلب، مرارًا وتكرارًا.

عندما أموت، ادفنوني واقفًا؛ لأنني قضيت حياتي كلها راكعًا، لأبي، لأمي، لأخي، لأختي، لعمّي، لخالي، لصديقي، لجاري، لوطني أجمع، ولن أكون يومًا، ولا لحظة راكعًا لسجاني.

سماء باسمي،

أحبّ أن أدفن وحدي،

لا قبلي ولا بعدي أحد،

اكتبوا فوق قبري،

كان هنا،

ومرّ عابرًا،

سأطلب من الخيّاط،

أن يخيط جيوبًا لكفني لأحمل فيها بطاقات ظلم كل من ظلمني، وأشهرها غدًا إلى ربي، ليأخذ لي حقي الذي لا أريده من أحد، لا في الدنيا، ولا في الآخرة، اتركوني وحيدًا، لا معي، ولا ضدي، يكفيني أنني مع ربّي، فهو نصيري، مع ديني، مع وطني، لا يعنيني الخائن أو اللص، أو المتسلّق، سأبقى مع الجميع، رغم أن الكل باع، سأبقى آحادًا في هذه المعمعة، أمعمع وأصرخ لكي يسمعني قبري، توفني مسلمًا، وألحقني بالصالحين.

وسار (يوسف) يحث الخطا، في ساحة السجن برتابة، ونهاية مرحلة، وبداية حياة جديدة لا يعرف أحد كم سنة ستكون مدتها.

تمت

» تعريف بالكاتب الأسير

- **الاسم:** عمار محمود سلمان عابد.
- **مكان الإقامة:** مدينة دير البلح – محافظة الوسطى.
- **تاريخ الميلاد:** 1984/07/17م.
- **الحالة الاجتماعية:** متزوج.
- **الإعتقالات:** 1.
- **تاريخ الاعتقال :** 2002/11/21م.
- **الحكم:** 20 عامًا ونصف.

الشهادات التعليمية:

- بكالوريوس تاريخ – جامعة الأقصى.

له مجموعة من المؤلفات، أهمها:

1. رواية، زاويرا.
2. منحة المحنة.
3. إشراقات قلم من وحي الألم.
4. من عبق القدماء وأقوال الحكماء.

» في هذه الرواية

وتبقى معركة الخير والشرّ قائمة ميدانها الكرة الأرضية، وجنودها البشر، وسلاحها السيف والقلم، وأجساد الأقوياء الذين يستطيعون أن يصرخوا وسط هذه المعمعة صرخة الشجاع في المعركة؛ لتصدر صوت حريق أعواد القصب؛ ليعلنوا للعالم عن فكرهم وعلمهم، أو ليظهروا آلامهم ومعاناتهم وأفاعيل ظلم الدهر بهم، أو للسببين معًا.

أمّا الفلسطيني منذ سبعين عامًا وتزيد، في وسط أكبر معركة في تاريخ البشرية، ورغم كل الاتهامات بأنّه خان! وباع! وفرّط في وطنه. إلا أنّه ما زال يمُعْمع، يصرخ وسْطَ هذا الميدان الصغير قياسًا مع العالم الكبير في قلبه، الذي تقدّر مساحته بسبعةٍ وعشرين ألف كم2، وتزداد تسعًا.